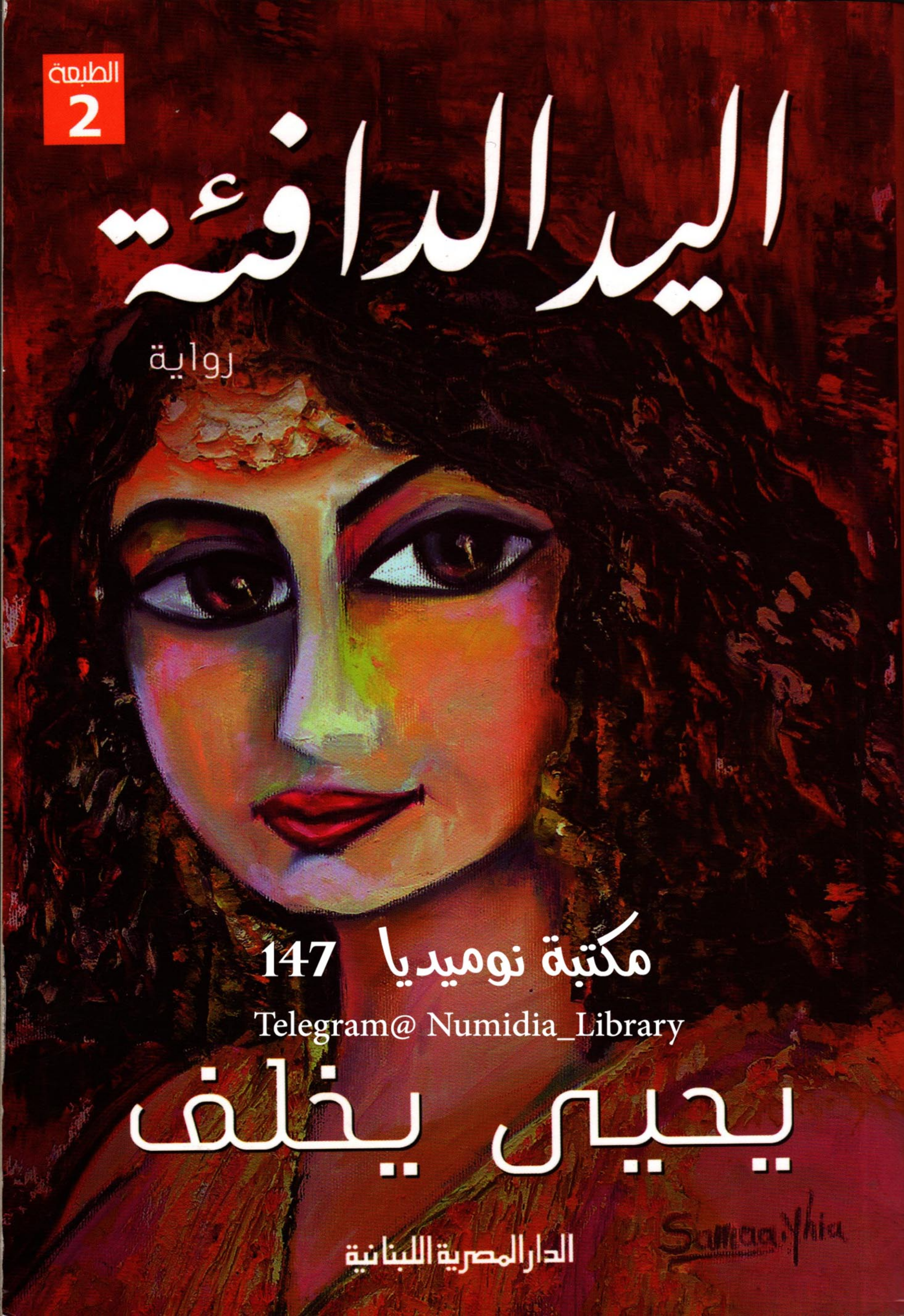

الطبعة
2
اليد الدافئة
رواية
مكتبة نوميديا 147
Telegram@ Numidia_Library
يحيى يخلف
Samaa.Yhia
الدار المصرية اللبنانية

اليد الدافئة

رواية

يخلف، يحيى حسن عبد الله.

اليد الدافئة: رواية/ يحيى حسن عبد الله يخلف .- ط2.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2018.

264 ص؛ 20 سم.

تدمك: 8 - 138 - 795 - 977 - 978

1- القصص العربية.

أ- العنوان. 813

رقم الإيداع: 20540 /2017

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

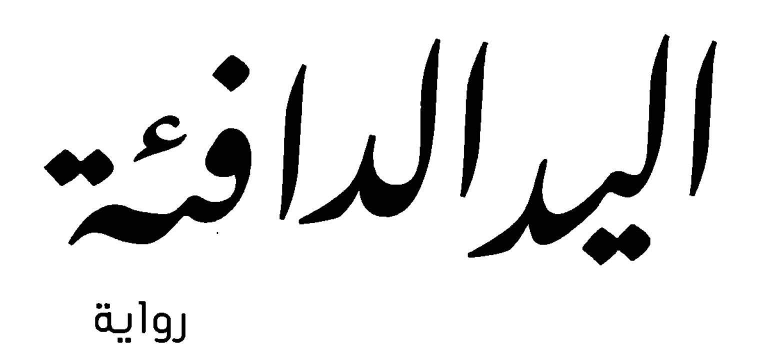
تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: محرم 1439 هـ - أكتوبر 2017م

الطبعة الثانية: 2018م



اليد الدافئة

رواية

يحيى يخلف

الدار المصرية اللبنانية

الفصل الأول

تقاعد الكاتب والإعلامي أحمد أبو خالد.

لم يصل إلى سن التقاعد بعد، لكنّه اختار التقاعد المبكّر.

وفي الواقع، قدر الإنسان أن يتقاعد، ولكن بعد سن الستين. وقدر الحيوان أيضًا أن تجبره وترغمه الشيخوخة على التقاعد، فأسد الغاب في غروب العمر تهاجمه شيخوخة عاتية، ويفقد قدرته على اللحاق بالطريدة، والحصول على الطعام. وقد تذهب الشيخوخة به بعيدًا، فتتساقط أنيابه وأسنانه، ولا يجد قوت يومه، وتنبح وتعوي عليه الكلاب والثعالب وبنات آوى.

وقدر الجماد كذلك أن يتقاعد، فأول مكوك فضائي من جيل (ديسكفري) تقاعد منذ أعوام، ونقل باحتفالية ضخمة ليرقد في المتحف. وفي كانون الأول من عام مضى، احتفل البريطانيون بنقل أول كمبيوتر يزن طنين، صنعوه عام 1949، إلى متحف العلوم والصناعات ببيرمنجهام بعد أن قرروا إحالته إلى التقاعد.

التقاعد قدر محتوم، وكأس النهايات، ما منكم إلاّ شاربه ووارده. وقد يكون التقاعد برزخ العبور إلى الأبدية، وقد يكون ربيع الخريف الذي يمثل متعة نهاية عمر، قبل أن تنشف العروق، ويجف النسغ، وتتساقط الأوراق.

للإنسان طفولة وشباب وشيخوخة. للطفولة براءتها، وللشباب جسارته، وللشيخوخة عزلتها.

* * *

تقاعد الكاتب والإعلامي أحمد أبو خالد تقاعدًا مبكّرًا بعد أن أدركه السأم.

ترك آخر وظيفة شغلها في الإعلام الحكومي، وأقام له رفاقه حفل توديع شارك به قلّة من الموظفين، وقدّموا له هدية (قلم باركر) أنيقًا، وأشادوا - كما تقتضي المناسبة - بمناقبه وشجاعته ودوره في التعبئة المعنوية عندما كان في التوجيه السياسي والمعنوي، وكذلك أشادوا بالمشاركة في تغطية معارك جنوب لبنان ومعركة بيروت، كما أشادوا بمقالاته التي ينشرها في المواقع الإعلامية الإلكترونية.

ويا للمفارقة! عندما كانوا يتبادلون الكلمات ذات النبرة الخطابية، كان يتذكر شيئًا مضحكًا أو مسليًا، ففي زيارة له إلى اليونان قبل عشرين عامًا، اشترى لوحة سيراميك صغيرة مكتوبًا عليها: الرجل يشبه القطار، والمرأة تشبه العالم!

بالنسبة للرجل: في العشرين من عمره يشبه القطار العمومي، فهو يتوقف عند كل محطة. في الثلاثين يشبه القطار الخاص، لا يتوقف إلا في البلدات الكبيرة. في الأربعين يشبه القطار السريع (الإكسبرس)، لا يتوقف إلا في العواصم الضخمة. في الخمسين يشبه القطار الذي يسير على الفحم؛ طالما يتوقف لتزويده بالماء. في الستين يتوقف ولا يغادر مكانه مرة أخرى، ويبقى في ساحة الخردة.

تذكّر عندها وقد بلغ السادسة والخمسين أنّه يشبه القطار الذي يسير على الفحم، لكنّه لم يأبه لذلك؛ لأنّه ما زال يحتفظ بالحيوية والنشاط.

وضحك في سرّه عندما تذكّر ماذا قالت لوحة السيراميك عن المرأة:

أما المرأة، فإنها تشبه القارات والدول؛ في العشرين تشبه أفريقيا، لا تزال شبه مكتشفة. في الثلاثين تشبه الهند: حارّة، وناضجة، وغامضة. في الأربعين تشبه أميركا، تقنيًّا مكتملة. في الخمسين تشبه أوروبا، كلها آثار. في الستين تشبه سيبيريا، كل إنسان يعرف أين موقعها، ولكن لا أحد يرغب في الذهاب إليها.

عندما اشترى لوحة السيراميك المزركشة على الجوانب، أحضرها لكي يمازح زوجته (جميلة) ليقول لها وقد بلغت السابعة

والأربعين إنّ أمامها ثلاثة عشر عامًا لكي تدخل نادي نساء سيبيريا، لكنهـا لم تصل إلى التاسـعة والأربعين إلا وقـد داهمتها ذبحة قلبية أدت إلـى وفاتهـا، ولـم يمهلهـا القدر لترافقه في شـيخوخة قسـرية فرضها على نفسه.

كان أحيانًـا يتحدث إلى نفسـه بعد رحيـل جميلة، والحديث مع نفسـه عادة سـترافقه كلمـا داهمه الإحسـاس بالعزلـة، ومما حدّث به نفسـه ذات عزلـة ووحدة: كم هم قسـاة أولئـك اليونانيون الذين يبيعوننـا تذكارات من السـيراميك في شـبابنا، فنفـرح ونحتفي بها، ونعلقهـا على جـدران بيوتنا، وفجأة، عندما نشـيخ، ونقترب من أن يصبـح الواحد منا قطارًا رابضًا في السـاحة، ننزل لوحة السـيراميك مـن مكانهـا، أو نقلبهـا علـى ظهرهـا، ونتحسـر علـى العمـر الذي فـات دون أن نعيشـه، ونقلـب صور الطفولة والشـباب فـي الألبوم ويدركنا الحنين.

* * *

الأيام أو الشـهور الأولى، انشغل بمتابعة الأوراق التي ينبغي أن يقدمها لهيئـة التأمين والمعاشـات، والتي تتعلق بسـنوات الخدمة، وتسليم العهدة وإخلاء الطرف.. إلخ.

كانوا في الهيئات والوزارات يسـتقبلونه بود واحترام، وينجزون أوراقـه قبل أن يُتم شـرب فنجان قهوته، ثمّ يعبّـرون عن تقديرهم له

بمرافقتـه حتى المصعد، وأحيانًـا كان صديقه الدكتور نادر، الطبيب في جمعية الهلال الأحمر، يقوم بهذه المهمة.

علـى الرغـم ممـا كان يحظى بـه من احتـرام، فقد بدأ يشـعر بأنّ تحـوّلًا طرأ على حياته. لـم يغيّر عاداته في النوم باكرًا والاسـتيقاظ باكـرًا، لكنّه عندما يسـتيقظ تبـدأ حيرته، لا يعمد إلـى طاولته ويفتح الكمبيوتر ويبدأ اسـتعراض صفحته على الفيسبوك أو استعراض ما تنشره المواقع من أخبار، وإنما يفتح التلفاز، ويترك المذيع يتحدث، والصور تتوالى، ويشرد مفكرًا فيما يتعين عليه أن يفعل.

كان هاتفه المحمول لا يكفّ عن الرنين طوال الشـهر الأول من تقاعـده، فقـد كان الكثير من الأصدقـاء والمعـارف يتواصلون معه ويعبّـرون عـن عواطفهم تجاهـه ويتجاذبون معه أطـراف الحديث، لكـن بمرور الأيام، صارت المكالمات تخف وتتناقص حتى كادت تتلاشى.

لم يعد يتلقى سوى مكالمة بين الحين والآخر على (الفايبر) من ابنته (ياسمين) المتزوجة، التي تعيش في دولة الإمارات.

كانت مكالماتها تشـعره بشـيء من دفـء العائلـة، دفـء يحتاجه أكثر بعد تقاعده.

فـي مقر هيئة المتقاعديـن، كان أكثر المتقاعديـن يترددون يوميًّا على المقر ويتجمعون في الصالة.

لم يعد لهم من وظيفة سوى تجاذب الحديث والذهاب للتعازي في بيوت الأجر أو التهاني في حفلات الزفاف التي تقام لأبناء أصدقائهم أو ذويهم.

وكان منتهى الفرح عندهم أن يأتي أحد من القيادة لإلقاء محاضرة حول المستجدات في المشهد السياسي، حيث يشاكسونه ويختلفون معه غالبًا في الرأي.

كان كثير منهم يعبّرون عن وحدتهم، وعن إحساسهم بالعزلة، فيقول أحدهم: يتعين علينا أن نقتنع، أو نقنع أنفسنا، أن لكل مرحلة من العمر بهجتها؛ للطفولة عذوبتها، وللشباب حيويته وجسارته، وللشيخوخة موسيقاها الخاصة، وقيمتها العالية.

وآخر يتدخل ويقول: الأمم المتحدة تقول إن الشيخوخة ثمينة، فالرجل في مرحلة الشيخوخة بمثابة مكتبة معرفية.

وثالث يكمل: الحزب الشيوعي الصيني يفاخر بقياداته التي تمثل مختلف الأعمار، فالشباب يمثلون النقاء الأيديولوجي، والكهول ممتلئون بالتجارب، أما الشيوخ فإنهم يمثلون الحكمة.

لكنّ رابعًا يتدخل، ويقول مشاكسًا كأنما يعترف بواقع الحال: أيها الشيوخ المتقاعدون، استمتعوا بما تبقى من العمر. استمتعوا بعقد صداقة مع أحفادكم؛ لأن أولادكم مشغولون عنكم بأعباء

الحياة، استمتعوا بمنح عواطفكم النبيلة لأحفادكم؛ لأن التجارب تقول إنه «ما أغلى من الولد إلا ولد الولد».

اغتنموا فرصة الوقت والفراغ ومارسوا هواية القراءة؛ لأن المعرفة كالقناعة، كنز لا يفنى.

اخرجوا إلى أمّكم الطبيعة، واستمتعوا بهواء نقي وطبيعة فريدة في بلادنا التي خلقها الله منذ الأزل، ومارسوا رياضة المشي أو رياضة التأمل؛ لأن الهواء والمشي والتأمل وصفات لمقاومة الضغط والسكري وأمراض القلب.

* * *

بدأ الإحساس بالوحدة يزحف إلى روحه زحف الرمال على الأراضي الخضراء.

لم يعد يستيقظ ويتناول وجبة الإفطار على عجل ثمّ يلبس ملابسه ويلمّع حذاءه، ويخرج هابطًا درجات العمارة من الطابق الثالث برشاقة وحيوية، ويركب سيارة هيئة الإعلام التي تكون بانتظاره لتقله إلى مكان عمله، ما عادت سيارة الدايو تنتظره، وظلت ملابسه معلّقة في الخزانة، وما عادت له شهيّة لتناول وجبة إفطار.

لم يعد مهتمًّا بفتح المذياع والاستماع إلى القنوات التي تبث أخبار الاستيطان وتجريف الأراضي والاعتقالات على الحواجز، والكوارث والهزات الأرضية والحروب التي تحدث في العالم.

ذات صباح، جاءته مكالمة خارجية، مكالمة من ألمانيا، مكالمة من صديق قديم هو الرسام سمعان الناصري.

منذ زمن طويل لم يتصل هذا الرجل الطيب الذي عمل معه في الإعلام الموحد.

كانت مكالمة حميمة استغرقت نصف ساعة، نصفها حديث عن زوجته (صوفي)، تلك الأفريقية الخلاسية التي لونها بلون الكاكاو، وأنهى المكالمة برغبته في المجيء إلى الوطن بعد أن يرحل الاحتلال.

بعد المكالمة، تذكر أنّ حكاية سمعان وصوفي طالما خطر له أن يكتبها في رواية.

لقد رحل الأصدقاء الحقيقيون منذ زمن، البعض غيّبهم الموت، والبعض الآخر تركوا الثورة وهاجروا، وسمعان كان واحدًا من هؤلاء الذين هاجروا.

لم يبق من أصدقاء العمر سوى الدكتور نادر.

كان صديقه الحميم الطبيب نادر يأتي بين حين وآخر ويصطحبه إلى (المقهى العربي) الذي اعتادا أن يختلفا إليه، ويمضيا الوقت بلعب النرد، ويحتسيا مشروب الشاي بالقرفة.

كان قلقه يزداد في فترة الصباح والظهيرة، لم يعد يدري إلى أين يذهب لتمضية وقته. لم يكن من متسكّعي المكاتب، فلم يكن معتادًا على تمضية الوقت بزيارات معارفه في المؤسسات، وقد تردد في الشهر الأول على مكتب هيئة المتقاعدين، فكان يحتسي القهوة مع رفاق الدرب الذين شاخوا قبل الأوان، وما عادوا يملكون سوى أحاديث شاحبة ومكررة عن الماضي الذي كانوا يقاتلون به في مختلف الجبهات، أو يعيشون مع سلاحهم في معسكرات انتقلوا إليها بعد الخروج من بيروت قبل أن يعودوا إلى أرض الوطن وينخرطوا في صفوف الأمن والشرطة والدفاع المدني، منها معسكر (سنكات) في السودان، أو معسكر (البيّض) في الجزائر، أو معسكر (السّارة) في الصحراء الليبية.

وجد نفسه في أغلب الأيام حبيس البيت، يراقب التلفاز شارد الذهن، يجلس مع الجدران والكراسي والطاولات، ويدركه السأم فيخرج ببيجامته إلى الشرفة التي تطل في فترة الصباح على شارع فارغ من المارّة، تذرعه بين الحين والآخر مركبة فورد نقل عمومي، أو مركبة بيع عبوات الغاز، وفي المقابل شرفات بيوت تطل من بعضها ربّات بيوت ينشرن الغسيل أو ينظّفن السجاجيد. في الليل، طوال الليل، شقة واحدة في العمارة المقابلة تظل مضاءة حتى الفجر، ومن وراء النافذة تبدو سيدة تجلس وراء ماكينة الخياطة،

لعلّها تفضل العمل بالليل، لعلّها تشتغل مع أحد المعامل التي تُعنى بخياطة الملابس، فيغض البصر، ويعود إلى عزلته.

عندما ينتصف النهار، يدخل المطبخ ويعدّ وجبة سريعة، فقد برع عندما كان يزور قواعد الفدائيين في إعداد وجبات مما تيسّر.

كان، وهو يجلس مع الطاولات والكراسي وجدران البيت عندما لا يجد ما يفعله، يحكي مع نفسه، أو ينظر إلى صورة جميلة المعلّقة أمامه على الجدار، فتنبجس من عينيه دمعتان ويناجيها ويشكو لها كآبة المشهد وسوء المنقلب.

ومرّة حكى لها أنّه صار مثل واحد من خيول مخيّم اليرموك الهرمة، وسألها بصوت يشي بدمعة: هل تتذكرين تلك الخيول التي كانت تجر العربات التي تجمع زبالة المخيم وتدخل بعرباتها الخشبية الشوارع والأزقّة يرافقها الزبال لجمع النفايات من البيوت؟ كانت أحصنة وبغالًا بالكاد تقوى على جر العربة، كانت منهكة تعمل أعمالًا شاقة، هزيلة وضامرة تمر في أرذل مراحل أعمارها. كنت أيامها أعمل في التوجيه السياسي والمعنوي، وكنا نسكن في شارع فلسطين، قريبًا من سوق الخضار، ذلك البيت الذي كنا نجلس في شرفته أثناء إجازاتي نحتسي القهوة بعد أذان الفجر، هل تذكرين؟

هل تتذكرين تلك الأيام عندما تبرعت منظمة (الأونروا) بشاحنات جديدة عليها شارة الأمم المتحدة حلّت محل عربات جمع الزبالة،

فقامت بلدية المخيّم بوضع العربات المهترئة في مخازنها، وأطلقت سراح الأحصنة والبغال التي شاخت ولم تعد تصلح حتى للبيع؟

أطلقت سراحها وتركتها تهيم على وجهها في أرجاء المخيم الواسع والمكتظ، أنهت خدماتها دون أن تنال مثل البشر مكافأة نهاية خدمة، ولعلّ المكافأة كانت إطلاق سراحها كخيار ما، مستبعدة خيار إطلاق رصاصة الرحمة بين أعينها التي يتجمّد حولها القذى، وتنز الدموع.

هل تتذكرين كيف كنّا نتعجب إذ نشاهدها تسرح فرادى وجماعات في الشوارع والأزقة نفسها التي كانت تسلكها كل نهار، كأنها تحفظ الطرق عن ظهر قلب، وتأتي قبل أن تمر شاحنة (الأونروا) لعلّها تظفر بما يؤكل من قشور البطيخ أو عروق الملوخية؟ هل تتذكرين كيف كان الأولاد الأشقياء يطاردونها بالعصي ويقفزون على ظهورها التي لم تشفَ بعد من جروح قديمة تسبب بها الخشب الناتئ من السرج البالي؟

* * *

وأحيانًا، كان يحدّث ابنته ياسمين. يحادث صورتها وهي في ثياب الزفاف مع عريسها، الصورة المعلقة في غرفة الجلوس. يتذكّر قول العميد المتقاعد فوّاز: استمتعوا بعقد صداقة مع أحفادكم.

الحفيد في بطن ياسمين ما زال جنينًا في الأشهر الثلاثة الأولى. لم يعرف بعد إن كان ذكرًا أم أنثى. «حبيبتي ياسمين، أنجبي لي حفيدة، أحب حفيدة تشبهك، حفيدة بعينين عسليتين، وبشرة بيضاء، لها خدّان مثل التفاح، وفيهما غمّازتان، وعندما يطول شعرها تحولينه إلى ضفيرتين، وتلبسينها فستانًا يشبه في لونه وردة جورية حمراء، أحملها وأخرج بها إلى حديقة الأمم، أمرجحها في أرجوحة الأطفال، وأشتري لها (آيس كريم)، وأضع على صدرها منديلي لكي لا تتسخ ثيابها. آه، وعندما تكبر وتأتين في إجازة، آخذها إلى مدينة الملاهي في بيتونيا، ألاعبها كطفل مثلها، نركب معًا تلك السيارات الذكية التي يتصادم بها الأطفال فلا تؤذيهم، وإنما تزيدهم مرحًا، ونركب في تلك العجلة الدوّارة التي تدور بنا عاليًا ثم تهبط بنا ونحن نشد الأحزمة. وفي طريق العودة، ونحن نتوجه إلى الشارع العام للعودة في المواصلات العمومية، أحملها على كتفي. وفي البيت أطعمها بيدي، وقبل النوم أقصّ على مسامعها قصة (حديدان) التي كانت تقصّها لنا أمهاتنا».

عندها يمتلئ بحنين جارف، يطلبها من هاتفه الجوال، ويحكي معها، مع ياسمين التي تنهي المكالمة بالبكاء.

* * *

ثمّ يتذكّر ما قاله رفيقه في هيئة المتقاعدين: اخرجوا إلى أمّكم الطبيعة، واستنشقوا هواء بلادنا، ومارسوا رياضة المشي والتأمّل.

ويتذكر الأرض التي ورثها عن والده في منطقة وادي الباذان، والواقعة على كتف الغور في المنطقة المصنّفة (ج)، وهي تحت السلطة الأمنية للجيش الإسرائيلي.

أرض من اثني عشر دونمًا، في أسفل الوادي، وقريبة من نبع ماء كانت في الماضي تُحرث وتُزرع، لكنها الآن مهملة لصعوبة الوصول إليها بسبب الحاجز الإسمنتي الذي أغلقوا به الطريق الوحيد المؤدي إليها.

فكّر ذات مرة بشق طريق جانبي يلتف على الحاجز، وعندما حزم أمره، استأجر (بلدوزر) ليشق الطريق، وما إن مضت ساعة عمل، حتى جاءت قوات إسرائيلية فاعتقلت السائق وصادرت (البلدوزر).

فيا رفيقي العميد المتقاعد، لم يعد هناك مكان آمن لشمّ الهواء، ولا طرق سالكة للتريض والاستمتاع بالطبيعة الجميلة لبلادنا التي خلقها الله منذ الأزل مكللة بالسحر.

الفصل الثاني

ظل الرجل الطيب أبو الخير، الذي كان يعمل سائقًا ومراسلًا في مكتبـه، يتـردد عليه قبل أن يذهب إلى الوظيفة، يشـتري له حاجيات البيت، ويجلب له الرسـائل التـي تصله من الجهات التي لا علم لها بعـدُ بتقاعـده، وينقل لـه الأخبـار الاجتماعية لمعارفـه، ويحضر له سـيدة متخصصة في تنظيف البيوت وتلميع زجاج النوافذ، والطبخ إذا كان هناك ضيوف، مرة في الأسبوع.

أبـو الخير كان مراسـلًا يعتنـي بتقديم الضيافة لـه ولزائريه، وهو شاب التحق بالوظيفة بعد اتفاق أوسلو وتأسيس السلطة الفلسطينية، وكان يتمتع باللطف والشـطارة، فهو بارع في حل كل مشـكلة، بارع فـي إصـلاح السـيارة إذا تعطلت، بـارع في إصـلاح صنابيـر المياه أو مزاليج الأبواب إذا أصابها خراب، بل إنّه يتقن الطراشـة والدهان إذا تطلّـب الأمر، وبارع في إنجاز المعاملات في الدوائر الرسـمية؛ نظرًا لعلاقاته الواسعة وظُرفه وحلاوة لسانه، وفوق ذلك كله، يحبّ القراءة، ويتابع الأخبار والمقالات في الصحف.

جاء يحمل له بشـرى سـارّة؛ انتهت ورشة الأوراق والمعاملات بعد شـهرين من الركض، وسـتنزل رواتبه التقاعدية في مطلع الشهر المقبل.

تلقّى الأمر بلا اكتراث، لم يبدُ على ملامحه فرح ولا دهشة، وفي الواقـع أنّه في تلك اللحظة كان يفكّر بهذا الرجل، ابن المخيّم الذي يسلّم مصيره للأقدار، لا يتقدم في الوظيفة ولا يتأخر، يبدو بشوشًا وخدومًا وراضيًا بما قسم له، ويعيل أمه الضريرة ووالده المسن.

يا لهذا الراتب التقاعدي الذي سيتسـلمه في يده اليمنى، ليسـدد بيده اليسرى قرض البنك وديونًا أخرى.

بعد أن خرج المراسـل أبو الخير بقليل، تلقّـى اتصالًا هاتفيًّا من سـميرة، سـكرتيرة تحرير الموقـع الإعلامي الإلكترونـي المفضّل لديه، مكالمة مجاملة استفسرت فيها عن صحته وسألت عن أخباره بعد التقاعد، وفي نهاية المكالمة، ذكرته بأن زاويته التي يكتبها يجب ألا تتوقف.

فكّـر بعـد انتهاء المكالمة بمسـألة الكتابة التي لـم تكن في البال طـوال الشـهرين الماضيين، كان يفكّر بكتابة روايـة، روايته الأولى، وفكّـر فـي (حدوتـة) تتضمن متعة فنيـة، ولـم يجد (حدوتـة) ممتعة أفضل من حكاية سـمعان وصوفـي. ربما ظل يفكّر بهذا المشـروع بشكل عابر، لكنّه لم يكن في وضع يمكنه من التفكير. كانت الكتابة

بالنسبة له معاناة، كانت تنتابه، وهو يشرع في الكتابة، ما يشبه الحمّى. ينشغل طوال الأسبوع في التفكير بالموضوع الذي يتعين أن يتناوله، كان يكتب موضوعات اجتماعية، وعندما يكتب السطر الأول، تنفتح له الأفكار والكلمات ورشاقة التعابير.

وبالعدوى، نظر إلى مكتبته التي أهملها وعلا أرففها الغبار، وعند ذلك خطر له أن ينظفها ويتفقدها من الغد.

في تلك الليلة، نام أحمد أبو خالد على قلق، وقبل أن ينام، فكّر فيما سيكون عليه حاله في الأيام المقبلة؛ فكّر كيف سيصنّف نفسه؟ هل يعتبر نفسه محاربًا قديمًا، أم متقاعدًا عاطلًا عن العمل؟

كيف سيمضي وقته؟ وكيف يسد هذا الفراغ في روحه؟ وكيف يسبح في نهر هذا الزمن السائل؟

أخذته الأفكار بعيدًا، وتذكر ما حدث لوالده الذي كان جنديًّا في جيش القاوقجي، جيش الإنقاذ، عشية حرب عام 48، فبعد النكبة، تم تسريح الجنود بشكل مهين؛ إذ حملتهم الشاحنات من معسكر (قطنا) الكائن بضواحي دمشق إلى ساحة المرجة، وألقت بهم على قارعة الطريق، دون أن يتلقوا كلمة طيبة تقديرًا لبسالتهم في المعارك.

وأخذته الأفكار إلى بغال مخيم اليرموك التي كانت تجر العربات التي تحمل النفايات إلى المزبلة، البغال التي لم تعد ذات جدوى

بعد أن استعاضوا عنها بسيارات حمل القمامة، وأطلق سراحها وهامت على وجوهها وهي تترنح بضعفها وهرمها وجراحها في أزقة ودروب الضياع.

نام ليلته على قلق وداهمته أضغاث أحلام، لم تتبق منها سوى صورة جميلة وهي تطل عليه من الأعالي والدموع تنثال من عينيها، وحيدة مثله، ترثي لحاله، وتتحسر على ماضٍ رحل.

* * *

أفاق في الصباح على مزاج عكر، شرب قهوته ودخّن سيجارة. كان بحاجة للتواصل مع أحد، في تلك اللحظات رن الهاتف.

كان على الخط صديقه الدكتور نادر.

نقل لصديقه بعض قلقه، وذكر له، فيما ذكر، رؤية جميلة في حلمه المشوّش. اقترح عليه الدكتور نادر أن يلتقيا مساء في مقهى آخر غير المقهى العربي، مقهى عصري يؤمه مثقفون وأفندية.

كان مقهى «بيستو» يختلف عن المقهى العربي الذي يلعب به النرد ويشرب الشاي الغامق مع صديقه الدكتور نادر.

الكراسي والطاولات والزبائن والأسعار هنا تختلف، المقهى العربي للذكور فقط، ويقع بجانب سوق الخضار ومواقف الحافلات وسيارات الأجرة، أما مقهى بيستو، فيقع في حي

الماصيون الراقي، ويتمتع بديكور جميل وأثاث فاخر، وقائمة مشروبات وعصائر وطعام أنيقة، ويجاور فندق الموفنبيك، وزبائنه من الشباب والصبايا، ومن رواده الدائمين زبائن أجانب من العاملين في المنظمات الدولية أو قنصليات الدول المانحة.

دخل أحمد أبو خالد مرتديًا بدلة وربطة عنق، دخل بتردد.

فحص بعينيه المكان يبحث عن طاولة شاغرة، في الركن كانت طاولة فارغة من الزبائن، توجه إليها ففوجئ بأنّها محجوزة كما تشير لافتة وضعت عليها، وأدار وجهه ليبحث عن غيرها، فانتبه إليه نادل المقهى وخفّ إليه، وأشار إلى طاولة قريبة بجانبها نبتة زينة وضوء مصباح خافت.

وصل مبكرًا، وبانتظار وصول صديقه نادر، تفحص المكان والزبائن.

رجال ونساء في غاية الأناقة، وصبايا بإطلالة بهيجة بالجينز والشعر الذي ينسدل على الأكتاف، وشباب بالجينز وشعر يحاكي قصات نجوم السينما.

وبانتظار صديقه الطبيب، تعلّق بصره بشاشة التلفاز المعلقة على ركن قريب، كانت محطة رياضة تبث مباراة كرة قدم، وبالكاد كان صوت المذيع يصل إلى مسامعه.

لم يستطع أن يعرف اسمي الفريقين اللذين يتباريان، فنظر إلى ساعته بتأفف. شعر للحظة أنّه وحيد وغريب في هذا المكان، وكانت أصوات الجالسين تطغى على صوت التلفاز، وفيما كان يتململ ويفكر بالخروج وانتظار صاحبه في الخارج، دخلت سيدة ممتلئة بثياب فاخرة، وشغلت الطاولة المحجوزة. وضعت حقيبتها على الطاولة، ونزعت شالها عن كتفيها، ثمّ جلست وهي ترد شعرها المنسدل على كتفيها إلى الخلف.

من موقعه القريب شمّ رائحة عطرها.

منذ زمن طويل لم يشم رائحة امرأة. أبعد نظراته عنها، وأشار إلى النادل وطلب فنجان قهوة.

جاء النادل بالقهوة، فيما كانت السيدة تتحدث من هاتفها الجوال دون أن تعبأ بوجوده قريبًا منها أو وجود الآخرين.

كان لها صوت ناعم، ولعلها كانت تستعجل قدوم محدثها، أو تعلمه بوصولها.

شرب قهوته على مهل، وأشعل سيجارة.

اقترب منها النادل، فقالت له بصوتها الناعم إنها تنتظر آخرين، وستطلب مشروبها عندما يصلون.

ها هي مثله تنتظر.

حانـت منه التفاتـة نحوها، وفوجـئ بأنها تنظر إليـه، وعند ذلك حركـت يدها بتأفف كأنها تطرد دخان سـيجارته، فما كان منه إلا أن أطفأ سـيجارته في المنفضة، فرسـمت على شـفتيها ابتسامة عابرة، كأنما تعبر له عن شكرها.

حركة سـريعة، ولحظة حرج شـديد، حدث نفسه: ما كان لي أن أتسبب في إزعاجها.

جالـت عيناه فـي أرجـاء المقهى علّه يجد إشـارة تنبـئ عن منع التدخين، لكنه لم يجد، بل إنّ وجود المنفضة بحد ذاته لا يشير إلى أن التدخين ممنوع.

مـع ذلـك، نظر إلـى سـاعته، وخطـر ببالـه أن يدفع ثمـن قهوته ويخرج.

عندهـا دخـل صاحبـه الطبيـب نـادر، وأقبـل عليـه معتـذرًا عن تأخره.

تنفس بهدوء، ولم يعاتب صديقه الذي سخر منه بتحبب وهو ينظر إلـى فنجان قهوته ويتهيأ للجلوس قائلًا: يـا صديقي، القهوة التركية تشـربها في المقهى العربي، هنا توجد أنواع أخرى: إكسبرسو، فلتر أميركي، نسكافيه، كابتشينو..

وانتبـه صديقه لوجود السـيدة، فتحرك نحوها علـى الفور، ومد يده نحوها فصافحها واسـتقبلته بحفاوة، ودار بينهما حديث سريع، أشـارت له بالجلـوس، فاعتذر مشـيرًا إلى حيث يجلـس، ولعلّهما اتفقا على تواصل هاتفي.

عندما عاد نادر إلى الطاولة، عاد مبتهجًا، أزاح الكرسـي وجلس قائلًا: أما قلت لك إنّ علية القوم يرتادون هذا المكان؟

قال ذلك وأشار إلى النادل، وقال له: أعطنا اثنين كابتشينو.

وتابع نادر قائلًا: يا أخي اخرج من عزلتك، ابتسم، حولك أناس يحبون الحياة.

رغبـة ما ألحّـت عليه ليعـرف من تلك السـيدة، لكنّه لـم يسـأل، وتوقع من نادر أن يبادر لذلك.

لكنّ نادر واصل الثرثـرة، وأبدى التذمر من كثرة العمل والمهام التـي يكلفونه بها في جمعية الهـلال الأحمر، ثمّ انتقل للحديث عن شـؤون البيت، وأقسـاط مدرسـة الأولاد، وارتفاع فواتيـر الكهرباء والهاتف.

وانتقل إلى السياسـة، وتصريحات كبار المسؤولين في السلطة، وخلافات فتح وحمـاس، وتعثّر محادثـات المصالحة، وتهديدات إسرائيل بشن حرب على قطاع غزة.

كان أحمد يصغي لكلامه، وبين لحظة وأخرى يسترق نظرة إلى السيدة التي انضمّ إليها ضيوفها، وكانوا من الأجانب، تتعدد جنسياتهم بتعدد لون بشراتهم، ما بين أسود وأشقر وأصفر. أربعة رجال وامرأة. كانت المرأة الصفراء يابانية كما يبدو، صبية تتميز بشعر قصير، وعينين ضيقتين، لكنها تبدو جميلة وهي تضع مساحيق خفيفة على وجهها.

وامتدت يده إلى جيبه بحركة لاشعورية، وأخرج علبة سجائره، وأخرج واحدة، وأدرك فجأة أنّ السيدة تضيق ذرعًا من الرائحة، فأعاد السيجارة إلى علبتها.

لاحظ نادر ذلك، فسأله: لِم لَم تشعل سيجارتك؟ في هذا المكان التدخين مسموح.

ابتسم وهو يشعر بشيء من الحرج، وتردد قبل أن يقول: صديقتك، تلك السيدة، تضايقها رائحة السجائر.

وأضاف شرحًا على ما حدث لدى تدخينه السيجارة الأولى.

ضحك نادر وقال: هي غريبة الأطوار أحيانًا.

وأضاف: هي فعلًا لا تدخن، وتشجع على الإقلاع عن التدخين. لكن رغم ذلك لا أحد يمنعك من حريتك في هذا المكان المفتوح، التدخين ممنوع في الصالة المغلقة.

كانــت السـيدة آنــذاك وضيوفها منهمكيــن في الحديــث وتناول مشروباتهم.

وهنا ســأل أحمد عمن تكــون هذه الســيدة الأربعينية التي تلفت النظر.

أخبره نادر بإيجاز أنها شخصية اجتماعية معروفة، تمتلك مختبرًا للتحاليــل الطبية، وناشــطة في مجال حقوق الإنســان. وأنّ ضيوفها من المتضامنين الأجانب الذين يشــاركون في التظاهرات المناهضة للاستيطان والجدار، واكتفى بذلك، ولم يذكر حتى اسمها.

الفصل الثالث

عــاد أحمد إلى البيت وفي مخيلتــه صورتها، ها قد جاء موضوع آخر يشــغله عمــا كان يفكّر بــه. لعلّ أحلامــه الآن لا تكون أضغاث أحلام، لعلّ البغال الهائمة على وجوهها ترحل من عقله الباطن، لعل دمعة أبيه تتوقف عن الانثيال وهو يروي له عن النهايات الحزينة في جيش الإنقاذ، لعلّ جميلة تبتســم في ملكوتها ولا تبكي، لعلّه يرى، فيما يرى النائم، ابنته ياسمين تحضن حفيدته وتلوّح له بيدها.

عاد، وكان الوقت لا يزال مبكرًا، والليل طويلًا.

خلع ملابســه وارتدى منامته، جلس فــي الصالون، وفتح التلفاز على قنوات الأخبار.

العالــم مجنــون؛ صراعــات وقتــل ومــوت، العالــم (مشــلّط)، ومنفلت، أميركا فقدت رشــدها، وإسرائيل تتغول، والأرض تترنح، والشمس تغيب، والحياة تمضي، ولو إلى حين.

أغلق التلفاز، وبحث عما يشغله كي يمضي هذه الليلة بسلام، عمّا يذهب ظمأ، ويطفئ شعلة قلق، ويوقف زحف الرمال إلى روحه.

كان شـيء مخبأ يلـح رغمًا عنه للظهور، شـيء مثل ومضة برق، ومثل قطعة حلوى ملفوفة بورق سـوليفان، مثل فكرة في الخاطر لم تكتب بعد.

حاول أن يشـغل نفسـه ويطرح المخبّـأ جانبًا، وأن ينحّي سـحر رائحة عطر لم تتسلل إلى حواسه منذ سنين.

عمـد إلى ترتيب المكتبة ونفض الغبـار عنها. تفحّص العناوين، وقلّب بعض الصفحات ثمّ أدركه السأم.

دخـل المطبخ وأعـدّ وجبة العشـاء. جلس إلى الطاولـة وتناول عشاءه وهو شارد الذهن.

كان يقاوم، لكنّ الوسـواس الخناس ظل يوسـوس بذلك الشيء الغامض الذي لم يتشيّأ بعد.

قـرر أن يعقـد اجتماعًـا مع نفسـه، ويتناقـش مع حالـه بعيدًا عن الهواجـس، لكـنّ جميلـة حضـرت. حضـرت جميلة فـي مخيلته، حضـرت بكامـل بهائهـا، حضرت وأراحـه حضورها، جميلة اسـم على مسـمى، كل شيء فيها جميل، سـت بيت لكنها تحب القراءة، ثقّفـت نفسـها بالتعلّـم الذاتـي، وصـارت عندمـا تتحـدث، تتفوق على الآخرين.

كانت شريكة حياة حافلة، عاشا معًا مشوار العمر، مشوار انتمائه للثورة، من دمشق إلى بيروت، من بيروت إلى السودان، إلى سواكن مع قبائل الهدندوة.

عاشت مع أولئك البسطاء وتعلمت بالمشافهة لغتهم، فتحت في تلك القرية مشغلًا وعلّمت السيدات والصبايا خياطة الثياب، كانت الحياة قاسية؛ الحر الشديد والجفاف وشح المياه والكهرباء. جاء وباء الكوليرا بسبب الماء الملوث، قاومت المرض بضراوة.

توقف بالتفكير عند هذا الحد. من الصعب تلخيص حياة جميلة بمرحلة العيش مع قبائل الهدندوة حيث معسكر قوات الثورة بعد الخروج من بيروت. في كل مكان عاشا فيه، تركت له ذكريات لا تُنسى.

كانت جميلة حنونة ودافئة، تلبس له في البيت أجمل ثيابها، تتزين له وتضع مكياجًا خفيفًا، وتحرص على رش العطر الخفيف، وتمنحه رحيق روحها الأجمل.

عاشا معًا كمحبيْن، كعاشقيْن، مثل طيور الحب عاشا، ولم يسأم أي منهما الآخر. وعندما أنجبا ياسمين، تعطّرت حياتهما بالفرح والمرح.

وقفت إلى جانبه بقوة، ووفرت له الظروف المواتية للكتابة. كانت تطبع مقالاته على الآلة الكاتبة قبل اختراع الإنترنت، ثمّ صارت تطبعها على الكمبيوتر. تقرأ له المقالة وهي تطبع، ثمّ تبدي له رأيها بالاستحسان أو الاستهجان. لم تكن تجامل في موضوع الكتابة، كانت تقول إنّ من بين كل عشرة قرّاء قارئًا ذكيًّا يميز الغث من السمين، لذا فالكتابة مسؤولية، الكتابة أمانة، الكتابة فكرة وإبداع.

توقف عن التفكير لحظة عندما جاء رنين الهاتف الأرضي. خفّ إلى الهاتف، وكانت ابنته ياسمين على الطرف الآخر.

ياه.. كم هي رقيقة وأنيسة ودافئة تلك المكالمة التي أعادت له التوازن والسلام النفسي والهدوء. مكالمة طويلة نسي لرقتها الهواجس والتشوش، وغواية عابرة.

أبلغته بنوع المولود، قالت إن الصورة تقول إنه ذكر. كان ينتظر أن تقول له إنه أنثى، ومع ذلك فرح لفرحها، كانت وزوجها يريدان ذكرًا، لا بأس. أنهى المكالمة بتهنئتها واشترط أن يكون المولود الثاني أنثى.

ظلّله هدوء وسكينة بعد المكالمة، أيقظ فيه صوتها حنان الأبوة ورهافتها. أيقظت حنينًا يحتاجه في هذه العزلة، في هذه الشيخوخة المضطربة أمام الرياح التي تعصف وتجعل الروح تترنح.

كان في هذه الليلة بحاجة إلى دفء العائلة، بحاجة إلى دفء ما، فالقلب الأرعن تنقصه رعشة حنين.

نظر إلى صورة جميلة معلّقة على الحائط. كانت تنظر إليه بعينين تغرغرت فيهما دمعة، لم يتنبه لذلك من قبل، كان يحسبها من قبل التماعة، التماعة ما!!

وقف واقترب منها أكثر، وتفحّص ملامحها، تفحّص شعرها وجبينها، وتفحص حاجبيها وأنفها وشفتيها وذقنها ورقبتها، كأنه يراها لأول مرة، تبدو بكامل ألقها، فكأنها ستخرج الآن من هذا الإطار وتلبس فستانها لتخرج معه إلى سهرة في مطعم.

أنزل الصورة وأخرج المنديل من جيبه، ومسح الغبار عن الإطار والزجاج، وأعادها إلى مكانها.

فكّر في الخروج إلى الشارع، فكّر في المشي، رياضة المشي تجلب له مزيدًا من الهدوء، لكنّ الوقت كان متأخرًا، فقرر الخروج إلى الشرفة، ليشمّ رائحة النسيم الذي ينشط آخر الليل. كان الصمت مطبقًا، وهواء خفيف تتمايل معه الغصون الطرية وأوراق ذوائب الأشجار، وأنوار أعمدة الكهرباء على جانبي الشارع تبدو شحيحة.

وفي العمارة المقابلة، البيوت مطفأة، ما عدا تلك الشقة التي تسكنها المرأة التي تمضي الليل بالعمل وراء الماكينة.

يا لشقاء تلك المرأة التي لا تكف عن العمل حتى ينهدّ حيلها، وتواصل العمل بالليل والنهار من أجل لقمة عيش مغمّسة بعرق جبينها.

خطر له أنها أرملة تعيل صغارها، فكّر للحظة بالهموم التي تعانيها وتثقل روحها، وقال لنفسه: كم هي عظيمة تلك المرأة التي لم تنحنِ للجوع والفقر ومكر الأيام. ظلّ واقفًا يتأمل حتى الهزيع الأخير، حيث ازداد الجو برودة، فعاد إلى الصالون، دون أن يشعر بالنعاس أو الرغبة في النوم، وكانت جميلة تواصل النظر إليه بعينين فيهما ألق ودمعتان.

لمعت فكرة، وفكّر بالكتابة. مشى بخطوات نشطة نحو غرفة مكتبه، كانت الكتب على الأرفف، وعلى الطاولة، وهنا وهناك، تتكدس وتزيد من فوضى المكان، لم يكن هناك موضوع ما في باله، لكن عليه أن يجلس وراء الطاولة ولا ينتظر الوحي، الوحي يأتي عندما يفرد الورق ويمسك القلم.

فتح ثغرة وعبر من بين أكداس الكتب إلى طاولة الكتابة، اعتدل على الكرسي، وفتح الكرّاس الذي اعتاد أن يكتب عليه، وأخرج قلمًا من بين رزمة الأقلام المعبأة في علبة أمامه، ودون تلكؤ أو تردد، كان الوحي بانتظاره، فكتب العنوان على الفور: رسالة إلى جميلة.

الفصل الرابع

مرّ فصل الربيع سريعًا، وحلّ صيف شرس. حلّ قيظ له أظافر ومخالب، قالت الأرصاد الجوية إن فلسطين لم تشهد مثل قسوته منذ ثلاثين عامًا.

كان أحمد يجلس في الصالون يقرأ الصحف وهو يبترد بهواء المروحة التي تدور بأقصى طاقتها. كان النهار قد انتصف ودرجات الحرارة في الخارج تصبّ جام غضبها.

طرق الباب، وجاء مرافقه وسائقه القديم أبو الخير، جاء يتصبب عرقًا وهو يحمل أكياس المؤونة والخبز. عمد إلى المطبخ دون تردد، وأفرغ في الثلاجة حمولته، وعاد بكأسين من عصير البرتقال المثلّج. جلس قبالته على الكنبة، وأخرج من جيبه منديلًا ومسح عرقه، وقال: الطقس جحيم في الخارج. ثمّ غيّر الحديث، وقال: أحمل لك أخبارًا جديدة.

استغرب أحمد من فكرة الأخبار الجديدة، لا جديد سوى الكوارث في بلادنا وفي هذا الكون، واصل المرافق أبو الخير:

- الجراد هاجم الأغوار بضراوة وبدأ يأكل الأخضر واليابس.

اعتدل أحمد، وبدت على ملامحه الدهشة، فتساءل باهتمام:

- الجراد؟!

- أجـل، درجـات الحرارة في ارتفاع، وجـاء الجراد من غامض علمنا.

وأضاف: ووصل إلى سـفوح الأغـوار القريبة من منطقة الباذان، يعنـي وصل أرضك، أرضك الرابضة بيـن الجبال والتلال. هاجمها بأسراب تسدّ عين الشمس.

- غريب. كيف عرفت؟

أجـاب أبو الخيـر: الخبر ما زال طازجًا. ستسـمعه بالتأكيد اليوم في نشرات الأخبار.

وتوقف قليلًا عن الكلام، وأضاف:

- لكن، وهذا هو الأهم، هل تسمعني؟

- أسمعك.

فرك أبو الخير كفيه، وأضاف:

- أخلـى اليهود الحاجز، وهربوا من المكان. يعني احتل الجراد الأرض، وجلا عنها اليهود.

ازداد أحمد دهشة، وتساءل: هل أنت متأكد مما تقول؟

أجاب: كنت في كراج سفريات نابلس، وكل السائقين يتحدثون عن ذلك.

قال ذلك، وتناول كأس العصير وشربه دفعة واحدة، ثمّ مسح فمه بمنديله، وقرّب وجهه من المروحة، وبدا عليه الانتعاش.

- قالوا إنها أسراب من الجنادب الكبيرة.

وأضاف: تلك الجنادب تأكل الزرع والزهور والبقول وكل ما تطاله أسنانها الحادة.

كان أحمد يستمع بلا اكتراث، كأنّ ذلك لا يعنيه، فحاول تغيير الحديث، وقال للمرافق أبو الخير: سيبنا من هذا الكلام، وقم واعمل لنا فنجاني قهوة.

كان يعرف أنّ أبو الخير يمتلك خيالًا مثيرًا، يسمع خبرًا ويزيد عليه، يصنع للخبر أربع أرجل، وثمانية رؤوس، ويرش عليه الفلفل والبهار والشطّة؛ لذلك لم يأخذ كلامه على محمل الجد.

انصرف أبو الخير وذهب إلى عمله، وبقي أحمد في البيت وحيدًا يفكر فيما عليه أن يفعل لتمضية هذا النهار. هذا النهار الذي له مذاق قرن أحمر من الفلفل الحار.

الجلوس في البيت أشد قسوة من حرارة الطقس في الخارج.

لبس ثيابًا خفيفة، بنطلونًا صيفيًّا وقميصًا نصف كم، وحذاءً رياضيًّا، وغطى رأسه بقبّعة ترد عنه ضربة شمس، وخرج.

خطط لجولة قصيرة في ميدان الأسود، وشارع ركب، ثمّ ينحدر إلى الشارع المؤدي لحي الطيرة، حيث تنتشر المطاعم المكيّفة.

ركب سيارة أجرة أقلّته إلى وسط المدينة. كان ميدان المنارة مغلقًا، تسدّه تظاهرة حاشدة، وكانت الشرطة تحاول عبثًا أن تجد منفذًا للمركبات التي تغذي الدوّار من عدة شوارع. كان المتظاهرون، كما بدا له، يتضامنون مع الأسرى المضربين عن الطعام في سجون الاحتلال. كانوا يرفعون اللافتات، وأحدهم اعتلى الميدان الذي تتحلق حوله تماثيل الأسود وأخذ يلقي خطابًا حماسيًّا.

هبط من سيارة الأجرة ومشى، اخترق التجمع البشري. كهول وشباب وصبايا يضعون الطواقي الواقية من ضربات الشمس على رؤوسهم، وبعض الشباب يلبسون قمصانًا (تي شيرت) بيضاء طبعت عليها صور أسرى، ويهتفون، ووسطهم تتحرك وسائل الإعلام بكاميرات تصوير.

وثمّة شخصيات من الفصائل تغتنم الفرصة وتدلي بتصريحات، ومتضامنون أجانب يلوّحون بالأعلام وهم يضعون على أكتافهم الكوفية الفلسطينية.

توقّف يتأمل المشهد، وفجأة وقع بصره على تلك السيدة، السيدة التي أطلقت عليه في مقهى بيستو رذاذ عطرها.

كانت وسط مجموعة من المتظاهرين تهتف وتلوّح بالعلم. كانت الشمس، رغم القبعة التي تضعها فوق شعرها، قد حوّلت خديها إلى تفاحتين.

وقف يتأملها عن بُعد. تلبس سروالًا من قماش الجينز، وقميصًا أبيض فضفاضًا ينسدل أسفل خصرها، وحولها، كما بدا له، مجموعة من النساء المسنّات يحملن صور أبنائهن الأسرى.

بدأ الرجل الذي يعتلي ميدان الأسود، وقد انتفخت أوداجه، يدعو إلى التوجه للحواجز والاشتباك مع جنود الاحتلال، ويبدو أن دعوته أزعجت السيدة؛ فعلى الفور صعدت إلى حيث يقف، وانتزعت منه مكبّر الصوت، وأعلنت أنّ اللجنة التنظيمية للتظاهرة قررت التوجه إلى مكتب الصليب الأحمر في رام الله لتسليم مذكرة باسم المتظاهرين، لتتدخل منظمات دولية من أجل الضغط على سلطات الاحتلال للاستجابة لمطالب الأسرى.

وفيما كانت السيدة تواصل كلامها، اقترب منه طاقم محطة فضائية، طالبًا منه الإدلاء برأيه، وعلى الفور، رفع المراسل الميكروفون، وقال: والآن، سيداتي سادتي، نلتقي بالكاتب والناشط السياسي أحمد أبو خالد، ونوجه له السؤال.

فوجـئ أحمد وارتبـك، وكان عليه أن يتصرف ويقـرر القبول أو الرفض.

- هـل تعتقـد أنّ هناك جدوى مـن اللجوء إلى منظمـة الصليب الأحمر؟

كان عليه أن يجيب، وألا يبدو متلكئًا.

كان عدد من المتظاهرين قد التفوا حوله، ربما ليسـمعوا إجابته، وربما لتظهر صورة بعضهم في المشهد.

جمّع أحمد أفكاره، وتحدث عن الأخلاقيات العالمية التي تناصر قضايا الشعب الفلسطيني، ومنها دعم نضال الأسرى السلمي، ومنها مقاطعة سـلطات الاحتلال اقتصاديًا وأكاديميًا وثقافيًا، وأكّد أنّ مثل هـذه التظاهرة دعم معنـوي وتضامن مع نضال إخوتنا الأسـرى في سجون الاحتلال.

لقاء تلفزيوني لم يستغرق سوى دقائق قليلة.

وبعدهـا، انتقـل الطاقـم والكاميرا إلى مـكان آخر، فيمـا انفضّ الجمع من حوله، ووجد نفسه ينسلّ من بين الجموع ويبتعد، وينضم إلى أصحاب الحوانيت الذين يراقبون التظاهرة عن كثب.

الفصل الخامس

ها أنت تصبح متفرّجًا، وتنضم إلى مقاعد المتفرجين، كأنك صرت نسيًا منسيًّا. كنت تصنع أقدارك، فصارت الأقدار تحدد مصيرك.

عدت من التظاهرة إلى البيت كأنك تعود من مقبرة دفنت فيها تاريخك وأحلامك، وأهلت عليها التراب.

كم بدا المشهد بائسًا وأنت تدلي بحديثك للقناة الفضائية، كأنك تدّعي آنذاك أنّك وراء تنظيمها، كأنك تحديْت الشمس الحارقة وقمت بالإعداد لها، كأنّك جئت خصوصًا للتضامن مع رعشات الأسرى.

مكره أنت لا بطل.

تعود إلى البيت لتجالس الجدران، والطاولات، والكراسي. تعود إلى عزلة ومنفى. تتذكر حياة حافلة عشتها لا حزنًا ولا مسرّة، عشتها تحت سقف التجارب والحكايا، وتجولت فيها في حدائق

الفكرة، وبساتين الأحلام، ذقت فيها مرارة الغربة وحلاوة الاطلاع على ثقافات وأساليب حياة، وإطلالة على مجتمعات.

عشت الزمن الجميل، والأزمان الوغدة، عشت تحت سقف الانتماء والسجايا أيام الكفاح عندما كان رفاق الدرب يتسابقون على التضحية وإنكار الذات، وعشت زمن التسابق على الوظائف والمناصب.

ظلّ يحدّث نفسه وينظر إلى جميلة في الصورة المعلقة على الجدار:

مثلك أنا معلّق في مسافة ما بين الشطرين في قصيدة هجاء. معلّق مثل هواجس مالك الحزين، مثل فارس يمتطي جوادًا شاحبًا، مثل عزيز قوم سقط من علٍ وتلقفته مذلّة، مثل رصيف تساقطت عليه أوراق الخريف، وغمره الشحوب.

ماذا بقي من رجل نثر ياسمين روحه في مشوار العمر؟

لماذا لا تجيد الرياح القراءة؟

لماذا لا ترحل الزعامات وأشباهها؟

لماذا يقتلون الجياد عندما تهرم؟

لماذا يحمل ديوجين فانوسه في نهار شديد العتمة؟

لماذا لا تدور الأرض، ولا تشرق الشمس، ولا تمضي الحياة؟

ظل يحدّث نفسه حتى اغرورقت عينا جميلة بالدموع. ظل يحدّث نفسه أو يحدّث جميلة حتى أسدل الليل ستائره، وناءت أحزان بحجم الجبال بأثقالها.

حاول أن ينام، لكن الأوجاع لا يدركها الوسن. تذكر أنّه لم يتناول طعام الغداء، لكن لم يأبه لذلك. وقف، وتمشّى في أرجاء البيت، مشى بتؤدة جيئةً وذهابًا. تناول من المطبخ حبة تفاح، قضم منها قضمة، وخرج إلى الشرفة.

خطر بباله مشروع الرواية التي يزمع كتابتها عن سمعان الناصري. قال لنفسه لعل هذا المناخ العكر الذي يحيط به من كل جانب مناسب لكتابة كوميديا بمذاق البلوط المر.

بدأت نسمات خفيفة تلطّف حرارة الجو، وتحرك ذوائب الأشجار تحت الشرفة.

نظر إلى الشارع وهو يلوك الثمرة، كان القمر يطلّ على المدينة، ويخفف من وطأة العتمة. كان هناك بعض المارة، وسيارات تعبر الشارع على الجانبين. وتحت العمارة يجلس أبو عمر صاحب دكان البقالة على الكرسي يشرب الشاي ويستمع إلى مذياع يبث أغنية لأم كلثوم.

يجلس وإلى جانبه إبريق الشاي على طاولة صغيرة، وإلى جانبها كؤوس ربما لمن يمر به من الأصحاب.

أكل تفاحته على مهل، ونحّى جانبًا فكرة الكتابة.

وعلى مهل فكّر في النزول إلى الشارع ليجد من يحادثه، ومن سوى أبو عمر يمكن أن يبسط له بساط الود.

هبط الدرجات ببطء، ووصل إلى باب العمارة.

انعطف يمينًا نحو الدكان، وما إن شاهده البقّال، حتى هبّ واقفًا ومرحبًا، ولعله تنبّه من ملامحه المشوّشة إلى أن جاره المهذب قد جفاه النوم.

وقف أبو عمر، استقبله بقميص الفانيلة الخفيف، وأحضر له كرسيًّا وأجلسه، وخفّف صوت المذياع، وطلب من الشاب الذي يعمل معه أن يجدّد إبريق الشاي ولا ينسى النعنع.

كان أبو عمر قد كنس رصيف دكانه، ورشّه بالماء لتلطيف الجو، ووضع حول المدخل أصص نباتات زينة.

جلس وأحسّ بنسمة ما تهب عليه. كانت نبتات العطرة حول الدكان تطلق رائحة زكية.

وظلّ أبو عمر يرّحب، ويمتلئ بالحيوية والمرح، هكذا هو، وجهه لا يعرف العبوس، هكذا هو، يتّسم بالمرح ولا تكاد ابتسامته تغيب.

بـدأ أحمـد يتكيّـف. بدأ يخـرج من أبـواب العزلة علـى رؤوس أصابعه، وبدأت السكينة تتسلل إليه على رؤوس أصابعها أيضًا.

شـرب الشـاي الغامق المحلّـى بطعم النعنع. كان للشـاي مذاق لذيذ.

ظـلّ أبو عمر يتحـدّث ولا يتوقف عن الكلام إلا عندما يمر عابر ويلقي السلام، أو يأتي زبون معتبر يرافقه إلى داخل المحل.

مـرت سـاعة من الزمـن وخفت الحركـة في الشـارع، وأبو عمر يواصـل الكلام ويحكي عن نيته طلب عـروس لابنه الكبير، ورغبته فـي أن يتصـدر الأسـتاذ أحمـد الجاهة التي سـتطلب العـروس من عائلتها.

كان حضـور أبـو عمـر يعبـئ فراغًا في هـذا الليل الذي نشـطت به النسـائم الرقيقـة، وحملت معهـا روائح الزهـور المصفوفة على شرفات البيوت.

اقتـرب الليل من الانتصاف، وأُطفئت أنـوار البيوت إلا بيت في العمارة المقابلة ظلّ النور فيه ساطعًا.

كان متيقنًا أنها شقة المرأة التي تجلس وراء ماكينة الخياطة.

كان بإمكانـه لحظتهـا أن يسـأل أبـو عمـر، الـذي يعرف أسـرار البيوت، عـن تلـك المـرأة التي تسـهر حتى بـزوغ الفجـر تعمل مع

الأقمشة والخيطان والإبر ولا تكلّ. لكنّه لم يسأل. بل إنّه، وقد انتصف الليل، أدرك أنه حان موعد إغلاق الدكان، ومن اللائق أن يستأذن للانصراف، وأن يودّع هذا الرجل، ويتمنى له ليلة سعيدة.

الفصل السادس

طرق الباب، كان الطارق المرافق أبو الخير. كان يحمل معه كيس برتقال وضعه في الثلاجة، ثم حضّر فنجانيْ قهوة، وطرح تحية الصباح من جديد، وجلس مع معلّمه في الصالون، وفرك يديه، وواصل الكلام: جئت أعتذر عمّا بدر مني من كلام حول موضوع الجراد، الصحيح أنّ ما قلته لك كان مجرد إشاعة، خبر مدسوس منقول عن إحدى المحطات الفضائية، لكن موضوع الحاجز العسكري صحيح، فقد تمّ نقله من مكانه إلى مكان آخر، لقد ابتعد كثيرًا عن أرضك، وهذا يعني بشرى خير، فالأرض الآن لم تعد في المنطقة العسكرية المغلقة.

رنّ جرس الهاتف، كان على الخط صديقه الدكتور نادر. مازحه، ثمّ سأله إن كان بدأ في كتابة روايته المستلهمة من سيرة سمعان الناصري أم أنّه ما زال يمارس الكسل الآسيوي!

وبعد ذلك غيّر الحديث، وقال له: يا صديقي أحمد، أحمل لك أخبارًا سارة؛ لقد صرت محط نظر المعجبات، أحمل لك دعوة

من معجبتين: الأولى من السيدة (نرمين)، التي عكّرت مزاجك في مقهى بيستو، والأخرى من ضيفتها الآنسة (هياتارو)، الصبية اليابانية التي ربما شاهدت ظهرها في تلك الليلة. لك منهما دعوة للاحتفال بعيد اسمه: يوم الشقيقة الكبرى، عيد ياباني كما يبدو.

عندما رنّ الهاتف، كان أحمد أبو خالد قد ارتدى ملابسه، وتهيأ للذهاب إلى مطعم (آزور). قرّر أن يدلل نفسه، ويجلس في مكان مبهج، كان شيء من ماضيه يستيقظ ويدفعه لمقاومة الاكتئاب.

اختصر المكالمة، واقترح على صديقه الدكتور أن يقبل دعوته للغداء في ذلك المطعم الأنيق، وأن يواصلا الحديث هناك.

* * *

جلسا في حديقة المطعم الخلفية، حيث تتوزع الطاولات بين أشجار الأسكدنيا، أو الأزكى دنيا، كما يحلو للدكتور نادر أن يسمّيها.

يا لهذه الدنيا التي نتغنى بحلاوتها التي لا تدوم! فمن سرّه زمن ساءته أزمان. زمن السرور لحظة، وربما ومضة، أو رمشة. يا لهذا الدماغ المنفتح أبدًا على الوسوسة!

حكى الدكتور نادر عن السيدة (نرمين) الممتلئة، باذخة الجمال، التي تلقت علومها في جامعات أميركا، وتتقن أربع لغات، وسبق

لها أن أسست منظمة لمنع العنف ضد المرأة كمنظمة أهلية غير حكومية، كما أنها تعمل مديرة في منظمة تُعنى بحقوق الإنسان، وخصوصًا حقوق الأسرى في سجون الاحتلال.

أصولها قروية، وتنتمي لعائلة ميسورة الحال، وتسكن الآن في رام الله. باختصار، تنتمي لعائلة من البرجوازية الوطنية الصغيرة.

لها شقيق أصغر منها، يعيش ويعمل في باريس، وهو الآن ضيف عندها ويصطحب صديقته اليابانية. صديقته هذه مجنونة، شكلها مثل اللعبة باربي، ولكن بملامح يابانية، تستطيع أن تقول إنّها (شعنونة)؛ تقول وتفعل ما تشاء دون أن تعبأ بمن حولها.

كان الدكتور نادر يتحدّث، وكان هو يستمع ولا يقاطعه. واستمرّ الدكتور في الحديث:

لا أعرف ماذا تريد منك السيدة، لكنّها أبدت استحسانها لمشاركتك في التظاهرة الداعمة للأسرى في إضرابهم، وأشادت بالحديث الذي أدليت به للقناة الفضائية. كما تذكّرت أنّها قرأت لك مقالًا على موقع إخباري لفت نظرها، وموضوعه عن (مقابر الأرقام).

كان أحمد يهزّ رأسه، ويستمع، وربما يخزّن كلام رفيقه ليراجعه ويتأمله عندما يعود إلى البيت.

أمّا تلك اليابانية الشعنونة، فعندما عرفت عنك شيئًا من السيدة، وذكرت لها أنّك من المناضلين القدماء الذين عاشوا على سفوح وذرى جبل الشيخ الذي يظل مكسوًّا بالثلج طوال العام على الحدود السورية اللبنانية، وأنك الآن متقاعد، فقد رغبت في أن تقول لك شيئًا عن فكرة جنونية تدور برأسها حول الاحتفال الكبير الذي تعد له، والذي أطلقت عليه اسم (عيد الشقيقة الكبرى).

عندما فُرشت المائدة بالطعام، توقف الدكتور نادر عن الكلام، وقال: أنا أوصلت لك رسالة، وحان الوقت لتصغي إلى نداء هذه الحياة، لديك فرصة لتلبي النداء وتخرج من عزلتك، وتتعرف على عائلة جميلة تعيد إليك الشعور بدفء العائلة.

كانت أطباق السلطة الإغريقية، والحمص البيروتي، والجبنة النابلسية، والبابا غنوج، وخبز الطابون المحمص، ووجبة الفيليه المزينة بالخضار، كل ذلك يفتح الشهية للطعام لا للكلام.

أكلا بصمت، وكان النادل يحضر مزيدًا من الأطباق بين وقت وآخر. وبعد الطعام، والحلويات، طلبا القهوة.

عند ذلك، خرج أحمد عن صمته، وقال: كم تبالغ يا صديقي! هل تعتقد أنني أنتظر فرصة للتعرف على امرأة من طبقة ثرية، تجيد الإتيكيت واللغات والعلاقات العامة وتوزيع ابتساماتها حسب مقتضى الحال؟

على كل حال، هنيئًا لك بهذه الصداقة، أما أنا، فلا أرغب بها.

لم يعلّق الدكتور نادر على الفور. انتظر قليلًا قبل أن يجيب:

إنّك تذهب بعيدًا يا صديقي. أنا قصدت أن تخرج من عزلتك، وتندمج في الحياة، وتتعرف على أناس جدد، يمكن أن يصبحوا أصدقاء، ويمكن أن يبقوا معارف.

توقف لحظة، وأضاف: كلامك هذا يهينني.

اكتسى وجهه بتقطيبة، وردّ عليه بنرفزة: يا أخي، اتركنا من مزاجك العكر. انظر حولك لعلك ترى أن الدنيا فيها ما يدعو إلى الإعجاب.

انظر إلى تلك المائدة، شاب وصبية. وانظر إلى تلك المزهرية أمامهما، هناك وردة حمراء. بعد حين، سيلتقط الشاب الوردة بأصابعه ويزرعها في خصلات شعرها.

وانظر إلى ذلك، عصفور يتشمس، يزيل بمنقاره ما علق بصدره وتحت إبطيه من غبار وشوائب. وانظر بعدها كيف يرفرف وينطلق إلى الفضاء لكي يلتحق بسرب.

انظر إلى شجرة الأزكي دنيا، ثمّة براعم تتفتح على أغصانها، وعمّا قريب تنضج ثمرة.

افتح نوافذ صدرك واملأ رئتيك بالهواء النقي.

تذكّر أننا نجلس في حديقة، وأنّ الناس تخرج من بين جدرانها وتأتي إلى هذا المطعم لتروّح عن نفسها.

ستقول لي إنني مثل واعظ يبشرك بالجنة، وينذرك بعقاب جهنم. لا يا صديقي، أردت أن أقول لك: كن جميلًا. فقط كن جميلًا.

حاول أحمد أن يتراجع، وأن يطلق إشارات تشبه اعتذارًا، لكن الدكتور نادر بدأ يجمع هاتفه النقال ومفاتيح سيارته، ويتهيأ للانصراف.

ثمّ وقف واستأذن للانصراف بكل تهذيب، وبادعاء ارتباطه بموعد عمل.

الفصل السابع

لام نفسه في تلك الليلة، فما كان عليه أن ينكّد على صديقه في جلسة غداء.

ألم تكن تود أن تتخلص من الأسلاك الشائكة التي أحطتَ بها نفسك؟ كنت تؤذي نفسك، فلم تؤذي غيرك؟ توتر صديقك الدكتور نادر، وتغيّر مزاجه. إنها المرة الأولى التي يغضب فيها مثل هذا الغضب، ولا يتقبل منك محاولة الاعتذار.

ما الذي يجري فعلًا؟ كيف تخسر نفسك وتخسر الآخرين؟ ألم تكن تفكّر في فتح الأبواب والنوافذ؟

حاول أن يخفّف عن نفسه، وقال إنّ الدكتور نادر مثل الحديد يسخن بسرعة، ويبرد بسرعة. سيقول لك في المرة المقبلة بسخرية: وجدت لك طبيبًا يعالجك، طبيبًا نفسيًّا. سيقول لك مرة أخرى: كن جميلًا. ويضيف عليها: كن جميلًا، ترَ الوجود جميلًا.

مهما يكن من أمر، فقلبه طيب. صحيح أنّه انصرف عابسًا، وركب سيارته ومضى، لكنّه لن يحمل في قلبه حقدًا.

مضى، ومضيت وحدك مشـيًا على الأقدام تقرع السن ندمًا على خسارة وهبل. مشـيت في الشوارع، وحولك الحياة تنبض بالحركة ولا تتوقف. إلى أين تذهب في هذه العصيرة؟

عـرّج على المقهى العربي الكائن قرب سـوق الخضار، وجلس في مقعد يطلّ على الشـارع حيث موقـف حافلات القدس، وطلب شايًا ونرجيلة تمباك.

ثمّـة اكتظـاظ وحركة، وباعة الخضـار والفواكه الذيـن يلتقطون رزقهم في المساء يصطفون فوق الأرصفة بعرباتهم.

أخذ أنفاسًـا من النرجيلة، وشـرب الشـاي الثقيل، قبل أن يخبره صبـي المقهـى أن جيش الاحتلال أطلق النار على شـاب من مخيم الأمعـري علـى حاجـز قلنديا، وأنّهم سيشـيعون جثمانـه بعد صلاة العصر. والمحلات والمتاجر تغلق أبوابها في مثل هذه الظروف.

هـذه حياتنـا، قـال لاعـب طاولة النـرد الجالـس قريبًا منـه، قال لرفيقه فـي اللعب: هذه حياتنا؛ مصادرة أراضٍ، وبناء مسـتوطنات، واعتقالات، وإطلاق النار على أولادنا بالرصاص الحي.

لم يمر وقت طويل. أقبلت المسـيرة التي تحمل الجثمان تسبقها هتافـات من مكبرات الصوت: لا إله إلا الله، والشـهيد حبيب الله. ويتقدمها حملة أعلام.

سدّ صاحب المقهى الباب مواربة.

أغلقت محلات البقالة والبهارات والحلوى المجاورة أبوابها احترامًا للجنازة. عبر المشيعون المدخل متوجهين إلى جامع عبد الناصر للصلاة على الشهيد قبل دفنه.

ألقى لاعبو الورق أوراقهم، وأغلق لاعبو النرد صناديقهم، وقاموا ليشاركوا في الصلاة. صار الشارع مزدحمًا، والشوارع المجاورة مكتظة.

وقف ومشى دون تردد ليشارك في الصلاة، منذ زمن لم يفعل ذلك.

انتظروا حتى حان موعد صلاة العصر، وبعد الصلاة أُدخل الجثمان، وتقدّم الإمام وأرشد المصلين إلى كيفية أداء صلاة الجنازة، وبدأ التكبير.

وأثناء ذلك، مرت في مخيلته صور شتى لجنازات شهداء كانت مراسيمها العسكرية تجري في مقبرة شاتيلا في بيروت، يرافقها إطلاق رصاص، عندما كان الزمن مديدًا، والسقف السياسي عاليًا، والكفاح المسلح يزرع والعمل السياسي يحصد.

عاد بعدها إلى المقهى الذي استعاد وضعه الطبيعي، وعاد إلى نرجيلته وجدّد نارها، وطلب هذه المرة مشروب اليانسون الساخن، وقال أحد الجالسين لصاحبه: لازم الحياة تستمر.

وقال لنفسه: عندنا تراجيديا وكوميديا، عندنا كل ما هو مجنون، لامعقول، عبث، فانتازيا.

الحياة نكد. أفق مغلق. الأشياء مهزومة والقيادة منتصرة. الزمن لم يعد مديدًا، والسقف لم يعد عاليًا، والخيبات تتراكم.

عاد إلى البيت يجرجر أقدامه كأنما يخوض في سراب متاهته. عاد إلى جزيرته، إلى منفاه. البيت لم يعد وطنًا، والوطن الجميل حوّله الاحتلال إلى أسلاك شائكة، وحواجز عسكرية، واستباحة، وإذلال، وإهدار كرامة.

يا لهذا السلام الذي لم يثمر سوى المرارة!

نام على وجع، نام بكامل ملابسه دون أن يتدثر باللحاف. لبث في النوم ساعة أو بعض ساعة، ثم أفاق على صداع.

أكل شيئًا ليوقف ذاك الصداع. غسل وجهه بالماء، أو على الأصح، صفع وجهه بحفنة ماء، ثمّ جفف الماء بالفوطة.

جلس في الصالة يحدق في اللاشيء. كانت حكاية سمعان الناصري قد دخلت إلى عمق قلقه الأرعن. سمعان الذي قالوا إنّه هرب أو انسحب بعد الخروج من بيروت، وبحث عن حياة جديدة بعيدة عن مرمى النيران.

جلس على الطاولة، وفتح اللابتوب، وخصص ملفًّا للكتابة. كتب للرواية عنوانًا أوليًّا: حكاية مقاتل غريق. وقال بصوت مسموع: يا سمعان، من أين نبدأ؟

وفكّر قليلًا: هل نبدأ من حيث انتهيت؟ أم نبدأ من حياتنا والطريق الذي سلكناه معًا من معسكر التدريب إلى الحياة في القواعد والكهوف، ومن ثمّ في المكاتب وإعلام فتح والإعلام الموحد؟

هل نبدأ من الغرفة الصغيرة التي تضاء ليل نهار واتخذت منها مرسمًا؟

هل تذكر الفرح الذي ملأ وجه ماجد أبو شرار وهو يتأمل الملصق الذي اختصرت فيه ملحمة معركة الكرامة؟

هل تتذكر الرسومات التي أبدعت فيها ورسمت بطولات الفدائيين في معارك الهبّارية وقلعة الشقيف بعناصر فنية عالية؟ تلك الرسومات التي جعلت كمال ناصر يبحث عنك ويزورك في تلك الغرفة المظلمة، ويمازحك ويسمي مرسمك بالـ dark room.

أم نبدأ برحيلك بعد الخروج من بيروت إلى ألمانيا وحصولك على إقامة لجوء؟ حينها تعذبت بضعة أشهر وتعبت قدماك في شوارع برلين، وجفّ نبع إبداعك، وأرسلت لي تقول: رصيف الثورة أوسع من كل شوارع العالم.

أم لعلني أبدأ من الفترة التي تعرّفت فيها على (صوفي) الهاربة من جحيم الحرب الأهلية في الصومال في مركز إيواء اللاجئين بضواحي برلين؟ صوفي التي بقلبها الرحيم هدّأت قلبك وجمعت شملك ولمت شعث نفسك. صوفي المرأة السمراء الخلاسية التي كانت معلمة تدرس اللغة الفرنسية في بلادها قبل أن تندلع الفوضى والحرب الأهلية، الأبنوسة الجميلة ذات التقاطيع الرقيقة في وجهها: سحر العينين، وامتلاء الشفتين، وشموخ الأنف. بشرتها بلون الشوكولاتة، ولا سواد إلا في بؤبؤ عينيها.

لون بشرتها الخلاسي الشهي جذب سمعان الناصري إليها، وجذبته أيضًا قامتها الفارعة، وجسدها المنحوت على هيئة عارضة أزياء.

وصلت صوفي إلى ألمانيا بعد رحلة شاقة، عبرت البحر إلى شواطئ اليونان، حيث لم يقبل طلبها، وقبل تسفيرها، ركبت القطار إلى حدود دول أوروبية أخرى، ولفظتها المدن والعواصم، ومشت على الأقدام، ونامت على أرصفة، وتعرضت لتحرش من بحّارة ومهربين وحرس حدود.

عاشت مرحلة شقاء في دروب شائكة، جوع ومرض وخوف، ووصلت إلى مركز الإيواء مثخنة بالجراح، وهناك التقاها سمعان،

التقى الغريب بالغريبة. جمعتهما الجراح والغربة، كانت جارته، نقلت من المستشفى إلى مركز الإيواء، فتعرف عليها.

كانت مثل وردة ذابلة عندما جاءت إلى مركز الإيواء، كانت تعاني فشلًا عامًّا وفقر دم، أنيميا حوّلت وجهها إلى شوكولاتة شاحبة.

خصّصوا لها غرفة ضيّقة في المبنى المجاور، وكانت إدارة (الكامب) في الأسبوع الأول توصل الطعام إلى غرفتها، وبعد أسبوع، صار بإمكانها النزول لتناول فطورها في المطعم، وفي المطعم، تعرّف سمعان الناصري عليها. وصار يرافقها في جولة قصيرة في أرجاء (الكامب) تحت أشعة شمس خفيفة، فيتحدثان بالعربية تارة، وبالفرنسية تارة أخرى، ويذهب إلى ماكينة القهوة، ويشتري فنجاني قهوة إكسبرسو يحتسيانها على مهل.

تعامل معها بروح المثقف والفنّان، وأطلعها على إسكتشات ورسوم كان يحتفظ بها داخل حقيبته التي يحملها على كتفه، ووضح من تصرفاتها وحديثها أنها قارئة كتب، وتتمتع بثقافة عالية، ولديها إلمام بالفنون التشكيلية.

وتعمقت الصداقة بينهما عندما رافقها إلى إدارة اللجوء لتجري مقابلة.

كتب أحمد أبو خالد ذلك على (اللابتوب) بالتفاصيل والوصف، وبما تختزنه تجربته في الكتابة من مهارة.

صبّ شحنته الكتابية الأولى، ثمّ توقف. ومنّى النفس بجولة كتابة ثانية، يواصل فيها سرد الرواية. وقبل أن يغلق الحاسوب، شعر بضيق في صدره.

خرج إلى الشرفة ليستنشق الهواء، أحسّ بساقيه ترتعشان، فعاد إلى غرفة النوم، وأيقن أنّ النوم هو الحل.

الفصل الثامن

أفاق أحمد أبو خالد على وهن؛ صداع وسخونة، ولعيان نفس.

أخذ حبة بانادول، لكنّه بعد نصف ساعة استفرغ كل ما في معدته، وأحسّ بوجع شديد في صدره، وفشل عام.

كان وحيدًا، أحسّ برعب، وخيّل إليه أنّه مشرف على الهلاك، وتذكّر صديقه الشاعر معين الذي وجدوه في أحد الفنادق ميتًا بعد مرور ثماني ساعات على صعود روحه.

بذل جهدًا إلى أن وصل إلى الهاتف، وبصوته الضعيف حكى مع صديقه نادر وطلب النجدة.

جاء نادر بسيارة الإسعاف ونقله إلى المستشفى.

وجد عناية واهتمامًا، وسحبوا من ذراعه عينات من الدم، وصوروه بالأشعة، وسهر على رعايته وتقديم الدواء والحقن له ممرضون وممرضات.

وجدوا عنده ارتفاعًا بنسبة السكر في الدم، وارتفاعًا في الضغط، وسوى ذلك، لم يكن هناك ما يدعو إلى القلق.

استعاد صحته، ومدّد له الدكتور نادر الإقامة لقضاء فترة نقاهة.

زاره بعض من علم بمرضه من محبيه. وفي اليوم الأخير، وقبل أن يغادر المستشفى، جاءت السيدة (نرمين) بصحبة الدكتور نادر.

سلمت عليه، واحتضنته، وقبّلت خديه. ومازحته قائلة: الشباب اللي مثلك ممنوع يمرضوا.

انتزعت منه ابتسامة، ونشرت في أجواء الغرفة بهجة. كانت تلبس فستانًا أنيقًا، وتضع على وجهها مساحيق خفيفة، وحول عينيها الكحل، وتضيء إطلالتها تسريحة ساحرة لشعرها.

جلست على مقعد قريب من سريره، وجلس قبالتها الدكتور نادر، وطلب من الممرضة أن تطلب القهوة.

دار حديث لطيف حول كفاءة مستشفى الهلال الأحمر وجودة خدماته، ثمّ عن موجة الحر التي لم تشهد البلاد مثلها منذ ثلاثين عامًا، وتحدثت السيدة بسخرية عن الشائعة التي ذكرتها منجّمة وقارئة أبراج في واحدة من المحطات الفضائية حول قرب هجوم الجراد على الأغوار الفلسطينية.

وقالت أيضًا إنّ ما زاد الطين بلّة، أنها تنبأت بكوارث سياسية وعسكرية تطال دولًا عربية وأوروبية.

وتناول الحديث الدكتور نادر، ووجّه حديثه إلى أحمد، وحثّه على بذل الجهود من أجل إحياء أرضه البور التي جفت لقلة الاعتناء بها، وزراعتها رغم أنف الاحتلال، فالأرض بالنسبة لنا هي هدف نضالنا، ومن حقها علينا أن نعتني بها فنشذبها ونستصلحها ونزرعها ونسقيها ونأكل من خيراتها.

وتوقف قليلًا ليرصد ردة فعل صديقه أحمد، فوجد ما يشير إلى الرضا، وعند ذلك تدخّلت السيدة قائلة: لنؤجل الحديث في هذا الموضوع إلى وقت لاحق، فلقد أثقلنا على السيد أحمد، ولندعه يستريح.

كان أحمد في تلك اللحظة ينظر بودّ لهذه السيدة الأنيقة والرقيقة، وكان يمكن أن يستمع إلى صديقه الدكتور دون أن يشعر باستهجان أو استفزاز.

لم يشم عطرها، فرائحة التعقيم للمكان تحجب ذلك، لكن وصلته رائحة من جمال روحها.

* * *

عاد إلى البيت برفقة الدكتور نادر وأبو الخير.

نام على سريره، وغادر صديقه الطبيب، وبقي أبو الخير يرعاه، ويعد له الطعام.

عـاده عصـرًا عـدد مـن جيرانـه يتقدمهـم صاحـب دكان البقالة أبـو عمـر. مكثوا سـاعة أو بعض سـاعة، مدوا له يد الـود، ودعوا له بالشفاء، وشربوا القهوة، وغادروا مكرّمين.

قـام أبو الخيـر بالضيافة، وبعد خروجهم، دخل المطبخ وغسـل الصحون وإبريق الشاي والفناجين، ثمّ غادر على أن يعود بعد صلاة العشاء.

وجد نفسـه وحيدًا، وكان بحاجة لهذه الوحدة، تمشّـى في صالة البيت، ثمّ خرج للشـرفة يتأمل الناس في الشارع، الساعين للأرزاق أو العائدين إلى بيوتهم، أو الشباب الذين يتجمعون على الأرصفة.

لـم يكن لمذياع أبو عمر صوت، وهذا يعنـي أنه غير موجود في دكانـه في هذا الوقت، وكانت نسـمات رقيقة تحرك أوراق وذوائب الأشجار.

وحانت منه التفاتة إلى العمارة المقابلة، فشـاهد الناس يجلسون فـي شـرفات البيـوت، للتنفس والابتراد فـي هذا الغـروب الهادئ. وشـاهد -فيما شاهد- السيدة التي تسهر الليل وراء ماكينة الخياطة، تجلس وحيدة في شرفتها.

لفـت ذلـك نظره، فـلأول مرة يراهـا فيما تبقى من ضـوء النهار. كانـت -كما قـدّر- سـيدة أربعينية، تغطي شـعرها بمنديـل، وتبدو بملامح ساحرة، وتحتسي كأسًا من الشاي.

وجـد القدرة على تدقيق النظر إليها وهو الذي اعتاد غضّ البصر عـن جاراته اللواتي يخرجن إلى الشـرفات، وخيّل إليـه أنها تتنبه إليه، وأنها بدورها تنظر إليه بين حين وآخر، فلعلها تتفحّصه أيضًا.

ولـم يطل المشـهد، فقد قامت عـن مقعدها، وانسـلّت ببطء من الشرفة إلى داخل البيت.

خطـر له أن إدامته النظر إليها قد أزعجهـا أو أربكها أو أحرجها، فاستدار وعاد إلى الصالون.

وقع بصره على اللابتوب فوق الطاولة.

تذكّر صديقه سمعان الناصري، وشعر كما لو أنّ سمعان يفتقده، كمـا لـو أنّه يعـرف أنه صار شـخصية روائيـة لها حضورهـا في هذا البيت، وكأنّه يستعجله في إكمال الحكاية، حكايته مع صوفي.

لـكلّ إنسـان حكايته، ولعـلّ تلك المـرأة التي تسـهر الليل وراء ماكينـة الخياطـة لهـا قصّـة، ولعلك أنت يـا أحمد أبو خالـد حكاية وقصة ورواية، ولكن من يكتبها؟

مـن يكتبهـا ابتـداءً مـن شـبابك المبكر، حيـن التحقـت بقواعد الفدائيين ذات فجر توكلت فيه على رب العالمين، والنعاس مرشوش على الجفنين، والندى مرشـوش على أوراق الورد، إلى زمن البغال التي تجر عربات النفايات، وتنتهي إلى متاهات التشرد!

من أين نكمل الحكاية، من لحظة السكن مع صوفي وإحساسك بعذوبة الحياة؟

أيّها البغل الذي تحرر سـريعًا من نير حديد السـرج مبكّرًا قبل أن تشيخ وتصبح من الأفواه اللامُجدية!

أخاطبـك بكلمـة بغل، لأنـك صبور مثـل البغـال، ولأنك كنت ترفـس النعمة التي أنعم الرب بها عليـك حين جعل الأقدار تهديك شجرة الكاكاو صوفي.

صوفـي عانقت سـمعان، ومنحته الـدفء في ليالـي الصقيع في تلـك الغربة، وحفّزته على الرسـم، وجعلته يرسـم لوحات فنية عن سـحر الشـرق لذوي البشـرة البيضاء والعيون الزرقاء. ووقفت إلى جانبـه، وفتحـت لـه الأبواب نحـو الشـهرة. وفي السـنة الأولى من حصولهمـا علـى الإقامة، نجحت فـي تنظيم معرض لرسـوماته في أرقى قاعات برلين.

دفعتـه إلى النجاح؛ فهـي التي اتصلت بـ(الغاليـري) ورتّبت كل الإجراءات، وصممت الـ(بروشور)، وأشرفت على وضع اللوحات علـى الأطـر، وزيّنـت القاعـة، وأشـرفت علـى إرسـال الدعوات، واتصلت بالصحافة، واستقبلت الجمهور.

هــي التي كانــت وراء نجــاح معرض الفنان التشــكيلي ســمعان الناصري، العصفور القادم من الشرق. وهي التي روّجت بيع نصف اللوحات.

احتفلا بالنجاح بمطعم فاخر يرتاده العشــاق والعرســان. شربت نخبه النبيذ، وشــرب نخبها في زاوية ضوؤها رقيق وخافت، وبينهما شمعة ووردة. وكان الفرح قد ركّب لكل منهما جناحين، فكأن طائر الشباب يرفرف ويزقزق داخل كل منهما.

كانــت بين لحظة وأخرى تقترب منه وتقبل شــفتيه، وكان بدوره يقبل شفتيها وجبينها ونحرها ويديها.

ليلتهــا، عرض عليها الزواج، كانت لحظتها مجنونة، وشــعنونة، فلم تقبل أن تكون زوجة، وإنما عاشــقة، ولذلك ستقاســمه الفراش كحبيبة لا زوجة، مثلما يفعل العشــاق في برلين؛ تعيش معه كعشيقة لكــي تظــل الأقرب إلــى قلبه، وذات يــوم، يمكن أن يتزوجــا زواجًا مدنيًّا إذا شاءت الأقدار.

ليلتها، قاسمها السرير، فكانت له أمة، وكان لها عبدًا.

* * *

طــرق البــاب، فتوقــف عــن الكتابــة، جــاء أبــو الخيــر يحمل له حاجيــات البيت مــن الفاكهة والبن الطــازج، وفور وصولــه قال إنّه يحمل له أخبارًا جديدة.

أغلق الحاسوب، وجلس منصتًا لما سيقوله صديقه الوفي.

حدّثه عما سمعه من سائقي سيارات العمومي عن جنّي يسكن أرضه، ويقال إنّه رصد يحمي مغارة، المغارة فيها كنز، والكنز يحرسه أسدان، والأسدان في بطن جبل، والجبل له ثلاث فتحات، وكل فتحة مثل فم البركان، وفم البركان يثور وينفث النيران كل مئة عام، وكل مائة عام يرحل الرصد ويتوالد منه رصد جديد.

كان أحمد يستمع بلا اكتراث، لكنه لم يحتمل كثيرًا. بذل جهدًا لكي لا يصرخ، وبصوت لا يخلو من غضب، طلب من صاحبه أن يكف عن قول مثل هذه الخزعبلات.

الفصل التاسع

مرّ أسبوع راق فيه الجو، ورقّت درجات الحرارة. الوقت: أواخر آب وأوائل أيلول. بدأ الخريف يقترب. بدأت المدارس تتهيأ لاستقبال طلابها، وعاد الزائرون من الخارج، وازدحمت المعابر حتى الاختناق.

نشطت المسيرات المناهضة للاحتلال، والاعتصامات الداعمة للأسرى في النهار، وفي الليل صارت المدينة تسهر حتى وقت متأخر. رغم أنف الاحتلال، الأرض تدور، والشمس تشرق، والربيع يزهر، والحياة لا تتوقف بحلوها ومرّها.

خفّضت المتاجر أسعار الملابس، وامتلأت الشوارع بلافتات التخفيضات على البضاعة الصيفية.

امتلأ شارع رُكَبْ بالمتسوقين، وراجت مبيعات مطاعم الشاورما والبوظة وساندويتشات الفلافل لأولئك الشباب الذين يرفهون عن أنفسهم بالتسكع في الشوارع وسط الزحام.

كان أغلب المتسوقين يشترون للأولاد ملابس الشتاء المقبل، وحقائب المدارس. الشارع مضاء، والمحلات مضاءة بالنيون وبألوان زاهية. والمشهد يبدو احتفاليًا ومبهجًا في الليل.

خرج أحمد أبو خالد من بيته بعد العشاء، وجاء لميدان المنارة، حيث الأسود الحجرية السبعة التي ترمز للعائلات التي أسست المدينة.

اندمج في الزحام. دخل شارع رُكَبْ ودلل نفسه بكوب (آيس كريم) من محل رُكَبْ الذي سمي الشارع باسمه.

ثمّ تمشّى يبحث عن مقهى كان يتردد عليه يقدم المشاوي ويقدم وصلة لمطرب وعازف عود أو كمان، كان بحاجة لأن يدلل نفسه ويستمتع بليلة نسيمها شديد الطراوة.

كان المقهى قد أقيم على (تراس) الطابق السادس. نقله المصعد إلى المكان. المقهى يعج بالروّاد، ودخان النراجيل ورائحة المعسّل.

بحث عن ركن هادئ، أدار نظراته هنا وهناك، لكن الطاولات جميعها مشغولة، وجاء النادل مسرعًا، وأشار لطاولة قريبة، وقال له: أصدقاؤك يدعونك إلى طاولتهم.

نظر إلى المكان الذي أشار إليه النادل، فرأى السيدة (نرمين) تلوّح له بيدها، وبجانبها آخرون.

لم يتردد في التوجه إليها، وقفت ورحّبت به وأشارت له بالجلوس. كان يجلس معها شقيقها وصاحبته اليابانية. سلّم على الجميع وجلس في المقعد الشاغر قبالتها.

كان فضاء المقهى مكشوفًا، ومفتوحًا على هواء منعش. وكان يتمتع بديكور جميل، وإضاءة خافتة تسمح برؤية القمر الذي يبدو بدرًا جميلًا.

رحّبت به السيدة، وعرّفته على ضيفيها، وسألته عن صحته، وقالت إنّه يبدو مبهجًا، وهذا يعني أن الصحة عادت إلى سابق عهدها.

شكرها وشارك بحيوية في الحديث، لكنه افتقد رائحة عطرها نظرًا للرائحة المعطرة التي ينشرها المعسّل وهو يحترق في أرجاء المكان، لكنّ الرائحة التي كانت حاضرة، رائحة روحها الجميلة، كانت تصله، تصله للغاية.

تبادل الحديث مع شقيقها، كما تبادل الحديث مع صديقته اليابانية التي عرفته على اسمها (هياتارو)، الذي يعني (الخنفساء) باللغة اليابانية، وضحك في سرّه؛ لأنها كما بدت للدكتور نادر، مشاغبة ورعناء.

اندمج في الحديث، وكانت السيدة نرمين تديم النظر إليه، وعندما تلتقي عيونهما تكتفي بابتسامة. لم تقل له ماذا تريد منه، وماذا تريد المشاغبة اليابانية.

عندما أحضر النادل القهوة، امتدت يده بشكل لاشعوري إلى علبة سجائره، وقبل أن يشعل سيجارة توقف، وتذكر أنها وضيفيها لا يدخنون. عندها، مدت السيدة يدها وتناولت علبة السجائر والولاعة، وأخرجت واحدة. أشعلتها، وأخذت نفسًا منها، ثمّ ناولتها له، قائلة مع ابتسامة ذات مغزى: تستطيع تدخين سيجارة في غابة النراجيل. ضحك، وضحكت، وهزت اليابانية رأسها.

تذكّر تلك اللحظة التي عبّرت فيها بإشارة من يدها عن أنها تضيق ذرعًا من رائحة الدخان، وكانت هذه الحركة التي قامت بها بمثابة مداعبة واعتذار.

وفجأة، وجهت له الصبية المشاغبة (هياتارو) التي كانت تجلس بجواره الحديث، وحدثته باللغة الإنجليزية عن أنها علمت من السيدة نرمين أنّه كتب عن مقبرة أرقام تضم رفات فلسطينيين قتلوا من قبل الجيش الإسرائيلي ولم تُسلَّمْ جثامينهم، ودُفنوا في المقبرة، ووضعوا لكل منهم رقمًا.

وقالت إنّها تراسل صحيفةً يابانية، وترغب في عمل تحقيق صحافي حول الموضوع، وإنها تريد مساعدته.

وقبل أن يجيبها، بدأ العازف الذي يبدأ سهرةً غنائية بالعزف على العود، ورافق ذلك تصفيق ترحيبًا به، وتعبيرًا عن الرضا.

بـدا الضيـق على الصبيـة، لكن أحمد هـز لها رأسـه بالإيجاب، وطمأنهـا عندمـا طبطـب على كتفهـا، وكان ذلك يعنـي موافقته من حيث المبدأ.

وهنـا، قالـت السيدة نرميـن بصـوت عـالٍ لينفـذ صوتهـا إلـى أسـماعهم: لا تحلو السـهرة دون الدكتـور نادر. وعبّر شـقيقها عن الاستحسـان، فـي حين أخرجت نرميـن هاتفها الخلـوي من حقيبة يدها، وأجرت الاتصال.

كان المطـرب يغني بمصاحبة العود أغنية: كل ده كان ليه. يغنيها بصـوت يحاكي صـوت عبد الوهـاب، صوت عـذب ودافئ، حتى أنّ الحضور كانوا يعبرون عن سـرورهم بالطرب وانتشـائهم بشـتى أشكال التعبير.

وبعدهـا، غنى المطرب القادم من شـمال الجليـل أغنية: حبيبي يسـعد أوقاته على الجمال سلطان، فاشتعل المكان بالتصفيق، وبلغ الطرب أوجه.

وفي ذروة تجليّات النشـوة والطرب، جاء الدكتور نادر، وجلبوا له كرسيًّا إضافيًّا وجلس، وسلّم دون أن يسمعوا سلامه، وردوا عليه السلام دون أن يسمع ردّهم.

توقف العزف والغناء، وأعلن مقدم البرنامج عن استراحة.

عاد الزبائن إلى الهرج والمرج وهم منتشون، وعادت طاولة نرمين إلى الكلام، بالترحيب أولًا بصديقهم الدكتور، ثمّ بالثناء على المطرب، وخصوصًا على نقاء صوته وعذوبة عزفه.

وأثناء ذلك، أشارت نرمين إلى نادل مرّ من أمامها، وطلبت قائمة الطعام. وبانتظار إعداد وتقديم ما طلبوا من وجبات، اغتنمت (الزنّانة) اليابانية الفرصة، وأعادت الحديث عن مشروعها في إعداد تحقيق عن مقابر الأرقام، وذكرت أنّ نرمين ترجمت لها مقالًا للسيد أحمد عن هذه المقابر، وأنّ الدكتور نادر ذكر لها أنّ المقابر سريّة، لكن هناك واحدة في الأرض التي يملكها السيد أحمد. وحاولت نرمين إيقافها، وتأجيل الحديث إلى وقت مناسب ومكان مناسب. وهنا، تحدّث الدكتور نادر، محاولًا جر الحديث إلى موضوع آخر، وقال مخاطبًا الصبية اليابانية:

حدّثينا عن مشروعك في الاحتفال بعيد الأخت الكبيرة.

تغيّر مزاجها، رفرفت بيديها كحمامة، ووقفت واحتضنت نرمين، وردت بمرح:

لن أقول لكم شيئًا حتى لا نفسد جمال المفاجأة.

وعادت إلى مقعدها، وقبّلت صديقها خليل، وخاطبته بلطف:

أليس كذلك؟

وافقها بهزة من رأسه، ومسح بكفه شعرها وقبّل خدّها.

وجاء الطعام، فانشغلوا بالأكل، وجرت بينهم حوارات جانبية، الدكتور نادر في حديث جانبي مع الصبية اليابانية، وصديقها الشقيق، فيما صار أحمد ونرمين وجهًا لوجه، يختلسان النظر لبعضهما البعض، وتتكلم منهما العيون.

وكان لا بد من الكلام، فبدأ الحديث بما هو رسمي، حيث أفصحت له عما تود قوله، فعرضت عليه العمل في مؤسستها الداعمة للأسرى لترؤس قسم الدراسات، وشرحت له تفاصيل المهمة، وعرضت أيضًا مكافأة شهرية.

وبعدها صفت الأجواء، واندمج الجميع في الحديث، وكفّت الصبية اليابانية عن المشاغبة، وعاد المطرب لتكملة وصلته الغنائية وعزفه على العود، وانتقل هذه المرة إلى أغاني صباح فخري، من يا مال الشام إلى القدود الحلبية.

انتهت السهرة والمسرة تملأ القلوب. غمرت أحمد السكينة والهدوء، وترك التأمل إلى ما قبل النوم.

أوصله الدكتور نادر إلى البيت. وفي الطريق، لم يتوقف الدكتور نادر عن الغمز واللمز حول قصة حب جديدة لأحدهم، وكان أحمد يبتسم، أو يضحك، ومرة واحدة علّق قائلًا: شرفٌ لا أدّعيه، وتهمةٌ لا أردّها.

الفصل العاشر

ها أنا أُكمل قصتك يا سمعان هذه الليلة، وقد ارتويت قليلًا بعد طول ظمأ، وأكتب إليك بمشاعر مؤنسة، وأحاسيس زاجلة، وأشعر أن فضاء البيت اتسع، وسقف السكينةِ صار أعلى؛ ففي هذه الليلة تظللني غيمة ساقتها لفضائي غزالة، غيمة تطرد هجير حزن مقيم ووجع لا يرحل.

لكنني أمسك بلحظة سلام داخلي بكل رعشات قلبي الأرعن، وبكل هزة وجدان في صدري الذي لم يكن في هذا الاتساع.

أكتب لك بالحرف النديِ، والكلمة المبللة بقطرة غيث.

مثل هذه اللحظة عشتَها أنت في أول شرارة عشق أطلقتها عينا الغزالة صوفي.

للعيون لغة يا صديقي، هي الأبجدية الأولى منذ الأزل، المغناطيس الجاذب للحب والخير والجمال عندما لا يكون التاريخ ماكرًا.

هذه الليلة تحضر في خيالي بقوة، يحضر جمالك وقبحك، وفاؤك وغدرك، طهرك وفجورك.

أكتب عنك لأنني وجدت في حكايتك ما يمكن أن أجد في كتابته متعة، فغربتك الخارجية هي غربتي الداخلية، وكلانا وقف طويلًا على رصيف الثورة، لكنّك كنت أكثر جسارة حين دخلت في مغامرة جسورة، ولم تعبأ بالربح أو الخسارة.

تركتُك في ليلة سابقة وأنت تحقق نجاحًا وفوزًا كفنّان تشكيلي في مساحات برلين ولايبزغ ودريسدن، رسمتَ بخيال شرقي لمسات من رسوم سحر ألف ليلة وليلة، ونشرت جماليات وإضافة حين غمست ريشتك بمداد الواسطي وروح الحريري في مقاماته.

حصلت على شهرة، وكسبتَ مالًا كان وراءه حنان ودفء وسهر الغزالة صوفي، التي كانت لك جذرًا وغصنًا وشجرة. لكن للأسف، عندما نبت لك ريش أيها العصفور القادم من الشرق، خرجت من بيتها إلى بيت جديد، واستأجرت مرسمًا جديدًا.

صحيح أنك لم توقف الإنفاق عليها، ولم تهجرها تمامًا، ولكنها فقدت روحًا كانت جميلة، وعاطفة كانت صادقة.

لم تكتفِ بحب تلك المرأة التي لها طعم الكاكاو، ودفعك الشبق إلى التوجه للشقراوات الفاتنات الخبيرات بالغواية وأساليبها.

جرحت صوفـي، جرحتها فهجرتْ برلين، وانتقلت إلى الضواحي، وعملت سكرتيرة في مدرسة تدريب على رقص الباليه.

وفـي الوقـت الـذي أضعت فيـه الطريـق، وأنفقت نقـودك على الغواني بإسـراف، ووجدت نفسك عاجزًا عن الرسم؛ لأنك فقدت الـروح للإبـداع، وفقـدت مـن كانـت تحفّـزك وتضـيء لـك ما في مخزونك من اقتراحات، وتوفر لك الظل الظليل.

فـي ذلـك الوقـت، كانـت صوفـي تبحث عـن طريقة تقـرر فيها خياراتهـا، فقد انخرطت فـي دورة تدريبية لتعلّـم الرقص، إذ كانت تمتلـك كل الشـروط لتكـون راقصـة باليـه بقامتها الرشـيقة، ولون الشـوكولاتة فـي بشـرتها، خصوصًـا أنها فـي طفولتهـا تعلمت في المدرسـة الفرنسـية هـذا الفن الراقي، ومارسـته فـي حفلات كانت تقيمها المدرسة.

كانـت لها خفـة فراشـة أذهلت المدربيـن، وحـازت الإعجاب وحصلـت علـى النجاح والتقديـر. كانت تبدو فرحـة، ومتعاونة مع مدربيها ورفيقاتها، لكنّها حين تخلو إلى نفسها، كانت تجترّ أحزانها، وتترك دموعها تنثال على خديها.

وفيمـا كنـتَ ماضيًـا في متاهتـك، كانـت صوفي تحـدد ملامح طريقهـا نحو عالم رقص الباليه. وجاء الوقت الذي مشـت فيه على هدي بوصلة قلبها عندما حان موعد الإجازات.

حصلتْ على إجازة، وكان عدد ممن تعرفت عليهن من الناشطات في المعهد قد قررن قضاء إجازتهن في رحلة سياحية إلى الشرق، تحديدًا إلى القاهرة.

انضمتْ صوفي إلى الرحلة، وكانت بحاجة إلى التعرف أكثر على روح الشرق التي كان سمعان يغرف من تراثها.

كانت القاهرة روح ذلك الشرق بفنونه ومعماره وتراثه وصناعاته التقليدية وفولكلوره. سحرتها الأهرام والركوب على الجمال، وسحرتها مباني القاهرة القديمة؛ القلعة، ومنطقة الحسين، وشارع المعز، والأزهر، وفي خان الخليلي توقفت أمام صنّاع الطرْق على النحاس، وصنع أباريق وأواني الفضة، والنقش والرقش، وفنون الأرابيسك.

كان برنامج الرحلة يتضمن سهرات ترفيه في كازينوهات شوارع الهرم.

في الكازينو، شاهدت الرقص الشرقي لأول مرة، شاهدت الراقصات المصريات بقدودهن الرشيقة وعيونهن الواسعة والحوراء، وحركات هز الخصر والبطن وتلوي الأذرع، وتنقل الخطوات على إيقاع التخت الشرقي والطبلة، أذهلها هذا الرقص حتى أنّ النشوة كانت تدفعها للصعود إلى المسرح ومشاركة الراقصة الرقص والتلوي حسب إيقاع الطبلة الساحر حتى الجنون.

لم تعد صوفي إلى برلين، وإنما بقيت في القاهرة، وقررت أن تلتحق بمعهد للتدرّب على هذا النوع من الرقص، والرقص الفولكلوري.

ألهت الدورة بنجاح، وساعدها جسدها المنحوت بهيئة عارضات الأزياء، وخفّة الحركة التي تعلمتها كراقصة باليه على إتقان فن الرقص الشرقي بشكل مبهر.

وقبل أن تعود إلى ألمانيا، اشترت بدلات الرقص والطبلة وعددًا من أشرطة الموسيقى الشرقية الخاصة بالرقص.

* * *

رنّ جرس الهاتف:

توقف أحمد عن الكتابة، كانت ابنته ياسمين على الطرف الآخر.

فرح بالاتصال، وفرحت ياسمين، قالت إنّها مطمئنة عليه هذه المرة من نبرة صوته، وقالت إنّها ستأتي إلى رام الله عندما يقترب موعد الولادة لتلد ابنها وتسجّله في بطاقتها.

وثرثرت معه طويلًا، وقالت أيضًا، فيما قالت، إنّها عندما تأتي ستبحث له عن بنت حلال تؤنس وحشته، وتدير شؤون البيت، بدلًا من أن يظل وحيدًا يتحدّث مع الطاولات والكراسي.

أضحكته، وأدخلت السرور إلى قلبه، فازدادت طاقته الإيجابية. أغلق سمّاعة الهاتف، وتحسن مزاجه أكثر.

كان قد أفرغ شحنة دفعته للكتابة، وشعر أن الشحنة تتجدد، فقرر أن يواصل كتابة حكاية سمعان البغل، وصوفي قطعة الشوكولاتة.

* * *

غادرت صوفي القاهرة وقد رحلت الكآبة.

عادت شخصية جديدة، تلمع عيناها ببريق وتطلّع إلى الأيام التي لم تأتِ بعد.

ومنذ اليوم الثاني لوصولها إلى الضاحية التي تقيم فيها، بدأت تبحث عن مكان تستأجره لتحوّله إلى نادٍ ليلي.

دبرت أمورها، جمعت ما تدّخره، وباعت ما تملك من خواتم وحلق وأساور، وأخذت قرضًا من البنك ووجدت المكان.

نفّذت بذائقتها ما صممته من ديكور ذي طابع شرقي، ومقاعد (البوف) المصرية، وألوان الجدران بلون رمال الصحراء، وإضاءة برقّة شروق الشمس، ولازورد الغروب.

اشتغلت بيدها وجهد بكل حب، وأحاطها رفاقها وأساتذة معهد الباليه بالحب والدعم، وبعضهنّ لبسن مثلها ملابس العمّال وساعدنها في طراشة الجدران ودهانها. وأطلقت على النادي

اسمًا شـرقيًا ذا دلالة، وبالنيون والألوان، حملت اللافتة اسم: نادي علي بابا.

وجـاء يوم الافتتاح وسـط حضور حاشـد لأصدقائها ومدعوين مـن شـتى المدن حصلـت علـى عناوينهم مـن قائمة معهـد الباليه، ومدعوين من وسـائل الإعلام. ووضعت علـى رقاع الدعوة صورة ساحرة لها ببدلة الرقص الشرقي، وهي تدق على الطبلة.

في الافتتاح الجميل، وسط أجواء البهجة، وعلى أنغام الموسيقى ودقات الطبلـة، رقصت الملكة صوفي التي صبغتها شـمس أفريقيا بلون النسكافيه عندما تختلط بالمبيّض.

رقصتْ على إيقاعات أذهلت جمهورها الغربي، رقصت برشاقة وخفّـة، رقصت كموجة تقبـل بعنف وتتراجع بخفّـة. تهجم كنَمِرَة، وتتراجـع كغزالـة. تـدور كزوبعـة، وتعتدل كنسـمة. تهتـز بالأذرع والسيقان، وتطلق غواية بعيني عاشقة وشفتي حبيبة.

شـاهد المدعـوون رقصًا لـم تشـهد مثله صـالات المدينـة، لونًا جديدًا أحبوه، وأثار في خيالهم سحر ألف ليلة وليلة.

كانت في اليوم الثاني حديث الناس ووسائل الإعلام.

وفـي غضون شـهر، وضع اسـم (نـادي علـي بابا) علـى مواقع الخارطات السياحية، والمواقع الاجتماعية.

صـارت صوفـي الملكـة نجمة فـي الصحافة ومحطـات التلفزة وحديـث النـاس، وكسـبت مـالًا، فسـددت ديونهـا ودللت نفسـها بالثياب وحاجياتها من الزينة والأساور والأقراط والقلائد.

* * *

ظلّ أحمد أبو خالد يكتب حتى آخر الليل. وضع نقطة على آخر سطر كتبه، ثمّ بدأ سطرًا جديدًا، وكتب جملة: وللحكاية بقيّة.

الفصل الحادي عشر

لبس أحمد أبو خالد أفضل ما لديه من ملابس، استحمّ وحلق ذقنه، وتعطّر. كانت نرمين قد تواصلت معه على الهاتف وحددت موعدًا للقاء في مقهى بيستو، المقهى الذي شاهدها فيه لأول مرة.

قالت له إنها ترغب في لقائه في المقهى لا في المكتب لكي لا يكون اللقاء رسميًا بل وديًّا. وحددت له وقتًا قبل الغروب.

خرج من البيت إلى المقهى فوجدها بانتظاره، وكانت ترتدي ملابس بسيطة، إذ اكتفت بقميص أبيض وتنورة حمراء، وعُقد منديل خفيف حول عنقها، ما أكسبها مظهر مضيفات الطيران.

رحبت به بحرارة، ورد عليها التحية بودّ وحيوية. كانت إطلالتها تتسم بجمال ورقّة، وكانت تمتلك شخصيّة قويّة، وتتصرف بلا حرج.

جاء النادل فطلبت نسكافيه وطلب قهوة إكسبرسو.

ثمّ بدأ الحديث عن الطقس واقتراب فصل الخريف، وقالت إنها تحب الخريف، فأكد بدوره استحسان هذا الفصل، وأخبرها أنّ

العرب في الماضي كانوا يسمونه: الربيع الثاني كما جاء في كتاب ابن العميد: أدب الكاتب، فشكرته على هذه المعلومة، ثمّ انتقل الحديث إلى شؤون أخرى. وبعد أن جاء النادل بالقهوة، صار يتعين عليها أن تتحدث معه حول عرضها له عن وظيفة في مؤسستها الداعمة للأسرى في سجون الاحتلال.

شرحت له بإيجاز عن المؤسسة وإداراتها القانونية والاجتماعية، وحاجتها إلى من يشغل منصب مدير الدراسات، وقالت إنّها معنيّة أيضًا بفتح ملف خاص حول (مقابر الأرقام)، وثقتها بأنه الشخص المناسب، خصوصًا أنّ الدكتور نادر تحدث كثيرًا عنه وعن مسيرته، وفضلًا عن ذلك، فقد تابعت مقالاته التي ينشرها على مواقع الإعلام الإلكترونية.

وقالت إنّ المؤسسة بحاجة لتوثيق تجارب الأسرى القدامى، وهو على صلة بهم وعلى دراية بمسيرتهم. كانت تتحدث بثقة وتبدو في تلك اللحظات كرجال الأعمال، وأنّ شخصيتها التي اتسمت بالجديّة تجعل منها شخصية مختلفة.

وكان عليه أن يجيبها بالجدية ذاتها، فأخبرها أنّه فكّر في العرض، وأنّ لديه وقتًا يمكن أن يخصصه للمؤسسة؛ اقتناعًا منه بسموّ الأهداف التي تقوم بها، وانطلاقًا من ذلك، فإنه سيعمل في المؤسسة كمتطوع.

أبدت السرور بموافقته، وجرى حديث حول المكافأة، فأصرّ على رأيه، ولم تجادل كثيرًا، واكتفت بالقول: نتحدث في هذا الموضوع لاحقًا.

وبعد ذلك، تغيّر الحديث وانفتح على مواضيع شتّى، وتناول الشعنونة (هياتارو) التي ينادونها في البيت بنصف اسمها الياباني، إذ يطلقون عليها (هيا)، فيصبح اسمها عربيًّا، لكنها تعترض وتقول: إذا أردتم اسمًا عربيًّا فأنا أختاره، ونقول لها: وماذا تختارين؟ تقول جادة: أختار اسم (شهرزاد)، أميرة ليالي العرب.

نضحك ونقول لها: لكن شهرزاد لها وجه حنطي وشعر كستنائي طويل، وأنت لون بشرتك أصفر وشعرك قصير كشعر الصبيان، ولها عينان واسعتان، وأنت عيناك ضيقتان، ولها جسد ممتلئ مكتنز وقامة عالية، وأنت طولًا وعرضًا بحجم قبضة اليد، ولها صدر عامر بنهدين مثل رمّانتين، أما أنت، فصدرك ممسوح، ونهداك بحجم ليمونتين.

تزعل وتخاصمنا، نسترضيها، يتدخل شقيقي خليل ويكلمها باليابانـي، وترد عليه باليابانـي، وبعد جدل طويل يرتفع صوتها ويرتفع صوته، فنتدخل لفض الاشتباك ونقول نسميك (دنيا زاد)، تتوقف لحظة، وتسأل: من هي دنيا زاد؟ نقول لها: شقيقة شهرزاد، تفكّر وتقول لنا: لا، خلص، أنا اسمي (الدكشنري)، الاسم الذي يحبه خليل.

شقيقي خليل حصل على منحة للدراسة الجامعية في اليابان، ذهب هناك وأمضى عامًا كاملًا في تعلّم اللغة اليابانية، وجاءنا في العطلة الصيفية بصحبتها، كانت وجهًا جديدًا علينا، لم نكن قد رأينا وجهًا يابانيًا عن قرب، فسألناه: من تكون هذه الصبية؟ قال بالإنجليزية: (She is my dictionary)، إنّها قاموسي.

فضحكنا وكنا نسميها فيما بيننا: (الدكشنري)، ثمّ فيما بعد، نسينا ذلك وسمّيناها (هيا)، لكنّها أحيانًا يروق لها أن نعود إلى اسم (الدكشنري)، أي القاموس الذي علّم خليل اللغة اليابانية.

لا تستطيع أن تتخيّل كم نحب هذه الشعنونة، ففضلًا عن حسنها وجمالها بالمقاييس اليابانية، فإنّها تتمتع بسجايا طيبة وخلق كريم، وأروع ما فيها اندماجها في حياتنا وأحلامنا ونضالنا، ألم تحدثك عن رغبتها في كتابة تحقيق صحافي عن مقابر الأرقام؟ لقد قابلتْ سيدة مقدسيّة لها ابن في هذه المقابر، وحكت لها حكايته وهي تذرف الدموع، فتأثّرت لحد البكاء، وقررت أن تثير هذه القضية لدى الرأي العام الياباني، وتؤسس جمعية من أجل الضغط على الحكومة هناك لتتدخل وتضغط على السلطات الإسرائيلية.

كان أحمد أبو خالد ينصت باهتمام، وشعر أنّها ترغب في إدخاله إلى دفء العائلة.

توقفت عن الحديث وقالت: دوشتك بثرثرتي. ثمّ ابتسمتْ، ورفعت بيدها خصلة من شعرها تدلّت على جبينها. عند ذلك، شمّ ذلك العطر المذهل والمبهر الذي سكن حواسه ولم يبرحها. صمتت. وكان عليه أن يحكي، أن يقول شيئًا.

واتته الجرأة، وقال: سعدت بحديثك الراقي، كلامك يفوح منه عطر. وأضاف: الليلة اكتشفت أنني سأعمل مع سيدة أصنّفها كأرستقراط ثقافي. وود لو يسألها عن نوع قارورة العطر التي أبهرته، لكنّه لم يجرؤ على ذلك، لكنّها لاحظت حيرته.

تدخّلت وقالت: يمكن أن تتعامل معي كصديقة لا ربّة عمل.

فرشت له بساط محبّة، فخطرت له فكرة، فاقترح ما خطر بباله: هل تقبلين دعوتي للعشاء؟

وأضاف: مطعم قريب من هنا. أرد لك الجميل لدعوتي إلى العشاء معكم الأسبوع الماضي، ويمكن أن ندعو البقية أيضًا.

رمقته بنظرة حنونة، وأطلقت ابتسامة هزّت مشاعره، وأجابت:

وأنا أقترح أن نكمل الجلسة في بيتنا، وسيكون ذلك مفاجأة طيبة لخليل والدكشنري.

شَعَر من جديد أنها ترغب في إدخاله إلى دفء العائلة.

لاحظت أنّه متردد، فمدت باطن يدها اليمنى إلى ظاهر يده اليسرى، وقالت: هيّا.

وقف بكامل هيبته وأناقته بهدوء، ولم ينتظر النادل لدفع الحساب، وإنما ذهب إلى مكان الدفع ونقدهم الحساب، وعندما عاد، نظرت إليه نظرة عتاب، فقد كان عليها أن تدفع باعتبارها الداعية، لكنها لم تعاتبه.

مشى إلى جانبها، ومن جديد، كان عطرها يرسل ما يشبه الرذاذ إلى روحه.

* * *

بيتها في حي الطيرة الجديد.

ترجّلا من السيارة، ودخلا العمارة، ودخلا المصعد، ثم وجدا خليل والصبية اليابانية بالانتظار.

كانت قد أجرت مكالمتين على الطريق: واحدة مع خليل، والأخرى مع الدكتور نادر. استقبلته الصبية بانحناءة على طريقة ترحيب اليابانيين بضيوفهم.

كان بيتًا واسعًا على الطابق الأخير، وأمامه فسحة واسعة.

اعتذر الدكتور نادر، فصار أحمد الضيف الوحيد.

احتفوا به على الباب، وقادوه إلى الصالون الفخم بأثاثه ومقتنياته من لوحات وإضاءة وعناصر لطيفة من التحف.

داخَله شيء من الخجل، هكذا يحصل معه عندما يدخل بيتًا عائليًا لأول مرة.

أثارت الصبية جوًّا من المرح، فقد جلست معه عندما دخلت نرمين غرفتها، ربما لترتدي ملابس البيت أو تصلح من شأن مكياجها وتسريحة شعرها.

جلست معه ومازحته قائلة: أنا سعيدة برؤيتك، فأنت صرت صديقًا عزيزًا لهذه العائلة.

وأضافت: يمكنك أن تدخن على راحتك، فستكون السهرة في التراس الخارجي. ولا تنسَ أن تحدثني عن مقابر الأرقام، وإن كان الحديث عن المقابر لا يدعو إلى التفاؤل.

عادت نرمين إلى الصالة بثوب أبيض من طراز القفطان المغربي المطرز على الجانبين.

دخلت بإطلالة بهيجة، وجلست قبالته، فيما انسحبت الصبية قائلة: سأذهب إلى المطبخ لأساعد خليل، سنعد لكما طبقًا من طعام السوشي. العشاء الليلة ياباني بامتياز.

وقبل أن تغـادر أضافت: وأنصحكما بالخروج إلى التراس، فقد أعددت لكما جلسة ساحرة.

أصبحـا وجهًـا لوجه، شـمّ رائحـة عطرها، فلعلّهـا جددت رش مزيـد من هذا العطر المذهل حتى الجنون، أيقوم الشـم مقام القلب في الخفقان حتى الارتجاف؟!

استجمع شـجاعته، وقـال وهـو يحـدق بعينيهـا: كم أنا سـعيد بمعرفتك.

رمقته بنظرة حميمة، وأجابت: وأنا أكثر سعادة.

أحسّ أكثر من أي وقت مضى أنها قريبة وأنيسـة ومفعمة برائحة الإنسـان. وتسـاءل في داخله: كيـف دخلت هذه المـرأة قلبي بهذه السـرعة؟! كيف دخلتُ قلبها؟ الأحاسيس والمشاعر تلتقي، وتتهيأ لعناق، ولم يبق إلا الاعتراف.

* * *

انتقلـوا جميعًا إلـى الفضاء المفتوح، إلى التراس الذي أشـرفت الصبية على فرشه وترتيبه.

جلسـوا علـى كراسـي مـن الخيـزران، وطاولـة في الوسـط من الخيزران أيضًا، مُدت عليها الصحون وأطباق السوشـي والشـوربة

وملاعق العيدان وعصير من كوكتيل الفواكه، وكانت الإضاءة مميزة ورومانسية.

أكلوا واستعانوا بالعيدان، ويا للعجب! فقد أتقن أحمد استعمال العيدان كملعقة وهو يتناول الرز المطهو على البخار وقطع السوشي مع (صوص الصويا)، في حين أنّ نرمين لم تتقن ذلك تمامًا، وصارت الصبية تلتقط الطعام بعوديها وتطعمها، وتثير المرح بضحكة صاخبة وتقول: أنا أطعِم الأخت الكبرى، الأخت الكبرى هي أمي.

وهنا، وقد أصبح الجو أليفًا ومناسبًا، يتدخل أحمد ويقول: هنيئًا لك بأم شابة وجميلة. وتدخّل خليل أيضًا، ومال على نرمين وقبّلها، وقال: أختي الكبرى أجمل الأخوات.

واِحلوّ الجوّ بعد ذلك، فذكر أحمد لهم أنّ اليونانيين يقولون إنّ المرأة تشبه دول وقارات العالم.

في العشرين تشبه أفريقيا، لا تزال شبه مكتشفة.

قال خليل مخاطبًا صديقته: إذًا أنت تشبهين أفريقيا، لم يكتشفك أحد سواي.

ضحكوا، ورفعت الصبية يديها عاليًا بمرح وصخب وفرح، وسألته: وفي الثلاثين؟

كان أحمد قد أصبح واحدًا منهم، وسرّه أنّ حديثه قد جذبهم. فأجاب: في الثلاثين تشبه الهند، حارّة وناضجة.

فركت الصبية كفيها بفرح، وقالت مخاطبة خليل: بعد أربعة أعوام أكون حارة مثل اللهب. حبيبي، هل سمعت؟

ضحكوا وازداد الجوّ ودًّا. وواصلت الصبية مرحها، وسألت: وفي الأربعين؟

تركّزت النظرات على نرمين التي ارتبكت، وكاد قلبها يسقط من مكانه، فلعلّها اعتقدت أنّ حظها قد يكون محرجًا، فانشدّت الأنظار إلى أحمد الذي ابتسم وأجاب:

في الأربعين تكون مثل أميركا، من ناحية تقنية مكتملة Technically perfect.

واو.. قالت الصبية، ودارت حول نرمين وعانقتها من الخلف، وكانت نرمين قد تنفست الصعداء، وارتسمت على محيّاها ابتسامة ذات مغزى.

عندها، عرف أحمد أنّ نرمين في الأربعين من عمرها، وحسب في سره كم يكون الفارق بينهما.

وبناء على طلب الصبيّة، أكمل أحمد لمن هنّ في الخمسين والستين، حيث في الخمسين تكون مثل أوروبا كلها آثار، وفي

الستين تكون مثل سيبريا كل الرجال يعرفون أين موقعها، لكن لا أحد يرغب في الذهاب إليها.

ضحكوا وانبسطوا، وأطلقوا النكات الجريئة، وامتدت سهرتهم إلى وقت متأخر من الليل.

الفصل الثاني عشر

ما الذي يحدث معك؟!

كيف خرج زحل من برجك؟!

كيف فرد الفرح جناحيه ورفرف حولك وأحاطك برذاذ النوافير في خريف العمر؟

كيف قررت الأقدار لك جماليات الغروب أو الأفول؟

لا تستطيع، رغم ترحيبك بصداقة جديدة، أن تنظر إلى جميلة في إطارها المعلق على حائط الصالون، أتراها تنظر بعتب، وتسائلك عن هذا التحوّل؟

أترى في عينيها دمعة بدلًا من بريق الدفء والحنو الذي كان يرسل لك سلامًا وتحية؟!

وماذا ستقول ياسمين عندما تخبرها أنّ برعمًا نبت على وردة قلبك؟

أتراها تقول إنّ التصابي أردأ من المراهقة؟

وماذا، وماذا، وماذا..؟

كانت الأسئلة تتوالد في خَلَده وهو يجلس أمام التلفاز الثرثار الذي يبث ما يدعو إلى السأم.

تتجول الأسئلة كيفما اتفق، ولا تنسى أن تتوقف أيضًا عند تلك السيدة التي سحرته أو سحره عطر روحها الجميلة.

ما الذي جعلها تنجذب إليه بسرعة، وينجذب إليها بسرعة أكبر؟

تعب من التفكير وطرح الأسئلة.

خطر له أن يعود إلى حكاية سمعان وصوفي ليهرب من جمود المكان وانسياب الزمان.

كان الحاسوب بانتظاره، كان قد اعتاد الكتابة دون أن ينتظر الوحي، فالوحي ينزل عندما يفتح الحاسوب ويبدأ الكتابة على صفحته.

* * *

أعود إليك يا سمعان، تركتك في المرة الماضية وقد نضب إبداعك، وأدركك عسر بعد يسر، سأكتب عنك بإشفاق، على الرغم من قباحة سلوكك وانغماسك بإدمان الخمرة وعِشرة

الغانيات والجري وراء الملذّات، وأهم من ذلك خذلانك لصوفي التي كانت الحانية والراعية والمحبّة.

وفي الوقت الذي كنت تنحدر فيه وتفقد رصيدك الفني عند الجمهور، كانت صوفي تصعد.

صوفي الهاربة من الحروب والاغتصاب والتمييز، مارستَ عليها الإقصاء والتهميش والهجر، نهضتْ بعد مكرك ومكر الأيام، أطفأتَ ما في روحها من نور، وأوشكتْ على الانهيار، لكنّها لملمت نفسها، ووقفت، وكانت بداخلها سنديانة.

نجحت في دراسة فن الباليه، ثمّ استعاضت عن الباليه بالرقص الشرقي، والرقص الشعبي المصري.

استقدمت مدربين، وشكّلت طاقمًا للرقص الشعبي. صارت تقدم عروضها لجمهور متعطش لثقافة الشعوب.

كان الجمهور يأتي من محافظات مختلفة، وكانت الصحف تكتب، والتلفزة تبث، والإذاعات تغطي، والدخل يزداد، والسنديانة تورق شموخًا.

عندما ضاقت بكَ السبل، وأُغلقت الأبواب، وكابدتَ من كآبة الحال وسوء المنقلب، ذهبتَ إليها مثل ولد ضال، مثل غريق يبحث عن خشبة يتعلّق بها.

* * *

وصل وطرق بابها، كان أغبر أشعث، وكانت لا تزال محتقنة.

لم تُدخله بيتها. حجزت له في فندق، وأرسلت من يشتري له ثيابًا لائقة. لم تقابله، لكنها سمحت له بحضور العرض، وسمحت له بمشاهدة رقصها الشرقي. لوّعته قبل أن تقابله، وبعد أيام، جاءها إلى مكتبها في الصالة، وعندما جلس أمامها، أحسّت بغصة، وذرفت دمعة، وبدأت السنديانة تترنح.

أشفقت عليه، فما كان باب قلبها المرهف مقفلًا.

لم تدعه يحكي، وإنما هي التي تكلمت:

عد كما كنت رسّامًا مميزًا.

وصمتت قليلًا، وأضافت: خذ ما تشاء وارحل.

قالت ذلك ووقفت، ومن وراء مكتبها استدارت، وخرجت، وقالت لمساعدتها: اجلسي معه وقدّمي له الضيافة، وانظري ما هي مطالبه.

خرجت وفي عينها دمعة، وفي قلبها وجع.

* * *

رنّ الهاتف. توقف أحمد عن الكتابة.

قام ليرد على الهاتف الأرضي، لكنه عندما رفع السمّاعة فصل الخط. لعلّها مكالمة خارجية، لا، على الأرجح اتصال بالخطأ.

كانت شحنة الكتابة قد نفدت، وكان يحس بالجوع، فأغلق الحاسوب، لكنه لم يغلق الحكاية. وقال ما قاله مؤلف أو مؤلفو ألف ليلة وليلة: وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح، وهو ما سيردده سمعان الناصري فيما تبقى من سيرته.

الفصل الثالث عشر

أفـاق على صوت زعيق سـيارة إسـعاف. صباح مزعـج، صباح لا يبشـر بخيـر. كان لا يـزال راغبًـا فـي النـوم، لكنّه لـم يتمكن من اسـتدراج الغفوة من جديد. أفـاق وأزاح الغطاء، وجلس على حافة السـرير، ودس قدميه في الحفّاية. مكـث قليلًا قبل أن يقف ويتوجه إلى الحمّام. كان يشعر بكسل وخمول.

عـاد بعد أن أفرغ مثانته وغسـل وجهه. وضـع غلاية القهوة على النـار، وذهـب إلى الشـرفة. شـاهد أسـفل العمـارة المقابلة سـيارة الإسـعاف تنقـل مريضًـا علـى الحمّالة لا تتبيـن ملامحـه، والناس تتجمع. ظلّ واقفًا إلى أن انطلقت وانطلق زعيقها.

تطيّر من المشهد، وعاد إلى قهوته وأتمّ غليها، وعاد إلى الصالون ليحتسـيها كعادته كل صباح. فكّر فيما يتعيـن عليه أن يفعل، وكيف يرتّـب برنامجـه هذا اليـوم. نظر إلى سـاعته، فوجد الوقـت لا يزال مبكّرًا.

رنّ هاتفه الجوّال، كان الدكتور نادر على الخط، صبّح عليه ومازحه، وقال له إنّه صار وسيطًا بينه وبين نرمين، وأضاف مازحًا: يا أهبل، ألم يخطر ببالك أن تعطيها رقم هاتفك؟ طول عمرك غشيم. هههههه. لن أطيل عليك، ستطلبك بعد قليل. وأغلق الدكتور نادر الخط دون أن يعطيه فرصة للكلام.

جاءه صوتها بعد قليل عبر الهاتف الجوال، وصبّحت عليه، وذكرت أنها حصلت على رقمه من الدكتور نادر، وقالت إن رقم جوالها أصبح ظاهرًا على صفحة جواله، ويمكن أن ييسّر ذلك التواصل بينهما. وطلبت منه أن يحدد موعدًا لكي يلتقيا في مكتبها لإطلاعه على الملفات الموجودة في الأرشيف، التي تتعلق بالتوثيق، وللحديث في شؤون أخرى، فطلب منها إمهاله فترة من الوقت لأنّه منشغل الآن بكتابة رواية، وأنّ الرواية في مراحلها الأخيرة.

كانت مكالمة بمثابة بسط حبل الود، وأثناء ذلك، حضر عطرها في ذاكرته، كأنما صار العطر هوية لهذه الصداقة التي تتعزز يومًا بعد يوم.

بعد المكالمة، خطر له أن يذهب إلى هيئة المتقاعدين ليقضي وقتًا هناك، فدخل إلى غرفة نومه واستبدل منامته وارتدى ملابسه، وتهيأ للخروج. وفجأة، طرق الباب. كان الطارق مرافقه السابق أبو الخير.

دخل بعجلة ولهوجة وارتباك، وجلس على الأريكة في الصالون، وظلّ صامتًا ليلتقط أنفاسه.

بهت أحمد من منظره الأشعث، وسأله: ما بك؟ هل هناك مصيبة؟

أجابه بصوت متحشرج: لا يا سيدي.

ونظر بذهول، وقال: أنا قادم لتوّي من أرضك في وادي الباذان. رأيت ما يدعو إلى العجب والرعب والدهشة.

وصمت، وخيّل لأحمد أنّ هذا الرجل دخل مرحلة الخرف، فاستحثّه ليكمل كلامه.

- كنت في مهمة عصرًا في مركز صلاح خلف بمخيّم الفارعة، وعندما أنهيت مهمتي، وتوجهت إلى الباذان في طريقي إلى نابلس، خطر لي أن ألقي نظرة على الأرض ما دمتُ قريبًا منها، وما دام اليهود أزاحوا الحاجز.

جفّ حلقه، فقام فجأة إلى المطبخ، وعاد بزجاجة ماء من الثلاجة، فتحها ورفعها إلى فمه وشرب، وسال الماء من شدقيه، وفيما كان أحمد يراقبه بإشفاق، مسح أبو الخير فمه بطرف كمّه، وواصل الكلام.

- وصلت تلك الأرض المبسطة الجرداء التي تحيطها الجبال. كانت مستوطنة جديدة قد أُقيمت على تلة بعيدة. وفيما أتأمل، وأتخيّلها مزروعة ومشجّرة، انشقت الأرض وظهر لي مارد عالي القامة، يلبس عباءة تحتها ثوب واسع الأكمام ويشد وسطه بحزام عريض، ووسط الحزام خنجر غمده مصنوع من العاج، ويضع على رأسه عمامة، وينتعل مداسًا كبيرًا.

أصابني الرعب، فصرخ بي بصوت كزئير الأسد: اثبت يا رجل، الرجال لا يرتعشون. كنت أرتعش، وكان سائقو الخط قد أبلغوني أنّ هناك جنيًّا يحرس كنزًا في هذه الجبال، جنيًّا راصدًا لكنز في مغارة على جبل يحاذي السهل، الكنز يحرسه أسدان، الأسدان في بطن الجبل، الجبل له ثلاث فتحات.

قاطعه أحمد: فهمنا.. فهمنا.. سبق أن قلت لي هذا الكلام.

هزّ أبو الخير رأسه، وقال: يتعيّن عليّ أن أخبرك. قال لي إنّ اسمه جوهر. لا.. لا، اسمه جؤذر، قال إنّ اسمه جؤذر، وقال إنّه من أهل الكهف، وقد استيقظ ورأى ما حلّ بوطنه فلسطين، وحكى لي حكايته، ورحلته مع السندباد، وكيف صارع البحار والأمواج، وما رأى من عجائب الدنيا، وكيف عاد من ديار الغربة، وقال لي: قل لمعلّمك: ازرع هذه الأرض، ودللها. نظّفها من الشوائب. وطلب

منـك أن تزوره فـي بيته. وعندما سـألته أين بيته، أجـاب أنّه ينام في حضن تلك الشـجرة الكبيرة، والشـجرة لها باب، وبابهـا له مفتاح، ومفتاحهـا عنـد الحدّاد، والحداد يريد أجرته، وأجرته سـبع سـنابل قمـح، والقمح عند الطحّان، والطحّان يريد أجرته، وأجرته عرنوس ذُرة، والذرة مزروعة في الأرض، والأرض عطشانة...

قاطعـه أحمـد بنرفـزة وغضب: كفـى. كفى! مـاذا أصابـك أيها المجنون؟! اغرب عن وجهي أنت وخزعبلاتك.

عندمـا خـرج أبو الخيـر، شـعر أحمد أنّه قسـا على هـذا الرجل الطيّب، فهو يحتاج إلى علاج نفسي بدلًا من تقريعه.

الفصل الرابع عشر

مرّ أسبوع صعب وقاسٍ.

أبـو الخيـر يمرّ بحالة ذهول، وقلق نفسـي. أحمـد يصطحبه إلى مستشـفى الهـلال الأحمـر، فاعتنـى بـه الدكتـور نـادر وأُجريت له الفحوصـات. تنقل أحمد به من عيادة إلى أخـرى، ولا أحد يصدّق روايتـه. يجمـع الأطباء على أنّـه يحتاج إلى معالجة نفسـية. يعرضه على طبيب مختص، فيصرف له الأدوية المهدئة.

زادت آلامه عندما انكشـف له سـر المرأة التي تسـهر الليل وراء ماكينـة الخياطـة، إذ عـرف أنّهـا هي المريـض الذي جاءت سـيارة الإسـعاف لنقلـه. أصابهـا نزيـف داخلـي ونقلـت إلى المستشـفى الحكومـي، وذهب أبـو عمر وبعض الأهالي لزيارتهـا، وتبرّعوا لها بالدم. وقال له أبو عمر إنّ حكايتها حكاية، ولم يقل له أكثر.

عـاد أبو الخيـر إلى بيت العائلة في مخيـم الأمعري، وعاد أحمد إلـى عزلته واكتئابـه. لـم يكن يردّ علـى هاتفه الجـوّال، كان الهاتف مركونًـا في زاوية من زوايا الصالـون، وجد اتصالات كثيرة، ميّز من بينها اتصالات عديدة من نرمين.

ثم، من يسأل عنه، ويقلق عليه؟!

اتصل بها، فجاءه صوتها رقيقًا بنبرة لهفة. قالت إنّها عرفت بموضوع مرافقه السابق أبو الخير من الدكتور نادر، وزاد قلقها عندما لم تتلق ردًّا من هاتفه. واستفسرت عن حكايته، ولم يكن يرغب في الحديث عن التفاصيل، قال إنه سيخبرها في وقت لاحق.

أغلق الهاتف، وأعاده إلى مكانه. كان الوقت عصرًا، وكان قد تناول شطيرة بيتزا في طريقه إلى البيت.

خلع ملابسه، وارتدى منامته، ونام على سريره. كان بحاجة لغفوة.

* * *

أفاق قبيل الغروب، غسل وجهه، وأعدّ قهوته، وجلس في الصالون. شدّه نداء ما، فقام وفتح باب الشرفة، جاءه ضجيج المركبات، وهواء بارد.

ودون أن يشعر، تعلّق بصره بالعمارة المقابلة، وبتلك الشقّة المطفأة، وودّ من أعماق قلبه أن يعود لها الضوء.

لسعته ريح خفيفة باردة، فأغلق باب الشرفة، وعاد إلى الصالون، وكان الحاسوب بانتظاره.

* * *

أكتب حكايتك يا سمعان الناصري وأنا مرتبك مثلك، لن أقسو عليك، وإنما سأتعاطف معك وأنت في متاهتك. تركتك أمام الباب المغلق، وصوفي تأمرك بالرحيل.

تعاطفت معك السيدة التي أمرتها صوفي لتكون صلة الوصل بينكما، انقطع الحبل الذي كانت تبسطه لك في الظاهر، لكنّك ظللت تراهن على ما هو في الباطن.

تعاطفت معك السيدة وقبلت أن تنقل لها رسالتك الأخيرة. طلبت من صوفي أن تقبلك موظفًا عندها. نقلت السيدة الرسالة، وجاء الجواب: ماذا ستعمل عندي؟ ليست لديّ وظيفة واحدة تناسبك.

أرسلت لها الجواب عبر السيدة: أشتغل عندك (علي بابا)، ألبس ملابس علي بابا وأنتحل شخصيته، وأقدم فقرة في برنامج الصالة كحكواتي، وأسرد كل ليلة حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، وبما أنّ الصالة تحمل اسم علي بابا، فسيكون ذلك تعريفًا بدلالة اسمها.

ذهبت السيدة إلى صوفي، وعادت بعد قليل، وقالت له: إنّ السيدة بانتظارك. وجدت فكرتك القبول؛ لأنّها كانت فكرة ساحرة.

أكّدت لك صوفي أنّها ستعطيك هذه الفرصة كحكواتي لفترة قصيرة، وأنك ستكون تحت التجربة، وستكون العلاقة علاقة عمل لا أكثر.

هكذا صرت علي بابا الحكواتي أيها الحرامي الذكي والجميل، فصّلوا لك جبة وعمامة، وصرت تقدم لروّاد الصالة حكاية من سحر الشرق، وتتوقف عند نقطة في ذروة الحبكة، وتقول للجمهور: نلتقي معكم غدًا لنواصل سرد الحكاية. يتشوق الجمهور ويطالبك بتتمة الحكاية، وتعيد الكلام: نكمل الحكاية غدًا. وهكذا سرقت قلوب الجمهور الذي يستمتع بالرقص والقص معًا، ومن الطبيعي أن يعودوا في ليلة أخرى ليعرفوا ماذا حدث للتاجر جؤذر عندما وجد نفسه في قبضة الغول، أو ما واجهه السندباد في عرض البحار من مخاطر.

حكيت لهم عن حكاية بدر الباسم والجوهرة، وملكات ملوك البحر، والرجل البغدادي، ووصفت لهم الجواري وحليهن من الياقوت المصحّف بالذهب الوهّاج، وحولهنّ طيور من الياقوت الأحمر التي تخمل في مناقيرها دررًا تضيء كأنّها الكواكب المنيرة، ونساء حرائر يستلقين على أسرّة من العاج المطعّم بالذهب الوهّاج يسقين عشاقهن من عيونهن خمرًا، ومن أياديهن خمرًا، ومن

لمى شفاههنّ رحيقًا، يلبسن الحرير الشفّاف، المضمخ بالمسك والعنبر، وحول أعناقهنّ عقود من الياقوت واللؤلؤ تساوي مُلك القيصر. (وكان يشير إلى الرجال في الصالة واحدًا واحدًا، ويقول كأنما الأمر يعنيهم): عندما تنظر إليك، تحسب عينيها عينيْ غزالة، وتسحرك بنور وجهها، وسواد شعرها.

عندها تضج الصالة بالتصفيق. نجحتَ وجلبتَ جمهورًا جديدًا، وصار اسم علي بابا على كل لسان. أذهل صوفي نجاحك، بل إنّها كانت تستمتع هي نفسها بحكاياتك. عبرت التجربة، وصرت مكرّسًا وشهيرًا مثلها.

* * *

توقف أحمد عن الكتابة، وكتب جملته الأخيرة: وللحكاية تتمة.

أغلق الحاسوب. تناول علبة سجائره، وأشعل سيجارة، وشعر بالراحة والسكينة، وزال ما كان عنده من التعب.

الفصل الخامس عشر

اختفى أبو الخير. جاء من يخبر أحمد أنّه خرج من بيته منذ أسبوع ولم يعد، وأنّ أهله قلقون.

ما الذي جرى له؟ أتراه فقد الذاكرة فخرج وضلّ الطريق؟ أصدمته سيارة؟ أم سقط في حفرة؟ أم سقطت عليه صخرة الأقدار؟

خرج يبحث عنه في إدارة الإعلام الحكومي، وفي الشوارع والأزقة، ومخافر الشرطة، وفي المستشفيات، فلم يجده ولم يلتقط عنه خبرًا. قام بواجبه، وسجّل محضرًا عنه كمفقود.

* * *

صار له مجتمع صغير ثابت.

الدكتور نادر الطيب النزيه والوفي، نرمين الطيبة الجميلة القريبة من القلب، اليابانية المشاغبة خفيفة الدم، خليل الشاب الأنيق (الجنتلمان) الهادئ. أمّا المعارف، فرفاقه الطيبون في هيئة

المتقاعديـن، وبعـض جيرانه، وفي المقدمة صاحـب البقالة الرجل الظريف أبو عمر.

الدكتور نادر صار يلتقيه كل يوم ويتحدثان عمّا يخطر على البال، من الانقسـام إلى الاسـتيطان إلى العجائـب التي رواهـا أبو الخير، وأخيرًا إلى نرمين وعائلتها، وغمز رقيق على التقارب بينه وبينها.

وفـي المرة الأخيرة، التقيا في وقت اسـتراحة الغداء في كافتيريا مستشفى الهلال. وخصّص الدكتور نادر الحديث عن نرمين السيدة والإنسانة.

هـي من عائلـة مقدسـية ميسـورة الحـال. جدّهـا كان يعمل مع القائـد عبد القادر الحسـيني في قوّات الجهـاد المقدس. كان جدّها مـن الأعيـان، ومن كبار المـلاّك. بنى أجمل فيلّا فـي حي القطمون بمعمـار تركـي، وكانت الأشـهر فـي القـدس. عـام 1948، حدثت الحـرب العربية الإسـرائيلية، وكانـت النكبة. احتـلّ اليهود القدس الغربية، وضاعت أراضي الجد، وضاع بيته ذو المعمار الفريد.

انتقلت العائلة إلى بيت كانت تملكه في أريحا، بيت صغير حوله حديقة صغيرة، كان الجد والجدّة يمضيان فيه أشهر الشتاء. تكدّست العائلـة في البيت الصغير، الجد والجـدة وولد واحد وثلاث بنات. عاشت العائلة في ضنك وعسر، وباعت الجدّة بعض مصاغها.

وفي منتصف الخمسينيات، عيّن الجد في مجلس النواب الأردني، فانتقلت العائلة إلى عمّان.

الابن يكبر وينهي المرحلة الثانوية ويحصل على شهادة (المترك)، فيرسله الجد إلى الجامعة الأمريكية في بيروت ليدرس الطب.

ورثت الجدة منزلًا بعد موت عمّة لها في حي الشيخ جراح، وكان البيت متهالكًا، لكنّ الجد رمّمه، بهدف الإقامة فيه بعد أن يحال إلى التقاعد.

في السنة التي تخرّج فيه الابن، توفي الجد، وبعد أشهر قليلة التحقت به الجدة. صار الابن يتحمل مسؤولية العائلة ورعاية أخواته الثلاثة، فعاد إلى القدس، حيث أكملت البنات دراستهن ثمّ تزوجن، بينما اشتغل في مستشفى المقاصد.

في عام 1966، تزوّج ابنة خالته أفنان، وبعد احتلال القدس عام 1967، نزح الكثيرون من السكّان، لكنّه لم يترك مدينته وبيته.

في أواخر عام 67، ولدت ابنته نرمين، وكانت فرحة كبيرة للعائلة. ولدت جميلة، وكما وصفتها إحدى العمّات: مثل النقطة في المصحف.

اعتقل عام 68 بسبب انتمائه إلى خلية مقاومة تابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. أمضى كمعتقل إداري خمس سنوات بين سجن المسكوبية وسجون تلموند وبيت ليد والدامون.

عاد إلى عمله في المستشفى، وصار من شخصيات القدس المرموقة المحسوبة على منظمة التحرير.

عام 1975، ولد خليل المولود الثاني. وكان في طفولته بهجة بثغرٍ باسم وإطلالة براءة، وكانت السيدة أفنان أمّه الأولى، والطفلة نرمين ابنة الثامنة أمّه الثانية.

في عام 1980، ساهم الوالد في تأسيس بيت الشرق مع القائد الوطني فيصل الحسيني.

وفي التسعينيات، أصاب الوالدة أفنان مرض السرطان، ولم يمهلها المرض، فتوفيت وتركت وراءها حسرة.

هكذا صارت نرمين، الشقيقة الكبرى، هي الأم الراعية والمضحية والحنونة.

* * *

سرد الدكتور سيرة موجزة. أصغى أحمد باهتمام وانتباه. كان لا بد من أن يعرف هذه المعلومات حتى تسكن قلبه ويتوطد خياره.

صارت لهذه السيدة نرمين وعائلتها حكاية مثل كل فلسطيني، فلكل فلسطيني حكايته.

بدأ الدكتور نادر يحاول أن يقرأ رد فعل صديقه على ما قاله من تقاطيع وجهه، وعندما لاحظ أحمد ذلك، ابتسم، وعمد إلى الممازحة، فمدّ إليه كفّه وقال: إذا كنت عرّافًا، فاقرأ ما هو مكتوب على خطوط الحياة في باطن كفّي!

الفصل السادس عشر

دعاه البقال أبو عمر على كاسة شاي بالنعنع. كان الطقس باردًا. جلسا في الداخل. وجدها فرصة مناسبة ليسأله عن تلك المرأة التي تخيط الثياب طوال الليل. قال له إنّها تحسّنت، وإنها عادت إلى البيت، وهي في مرحلة نقاهة. وحكى له حكايتها.

سيدة طيّبة، أرملة في عقدها الخامس. جارة محترمة، توفي زوجها منذ عشر سنوات، وخلّف منها ولدًا واحدًا. الولد اسمه (جليل). كرّست حياتها لولدها، وربّته أحسن تربية.

سيّدة جميلة، تقدّم لها كثير من الرجال من ذوي المناصب المعتبرة، لكنها رفضت الزواج من أجل أن تربي ولدها. ربّته كل شبر بنذر، كما يقولون. نما الولد وترعرع ودخل المدرسة، وكان نموذجًا للاجتهاد والخلق. كانت سيدة قوية يعتمد عليها، فاشتغلت بمهنة الخياطة، واستطاعت أن تعيش وولدها حياة ميسورة. وأنهى جليل المرحلة الإعدادية، ودخل المرحلة الثانوية.

اندلعت الأحداث والمواجهات مع جنود الاحتلال، وشارك الشبّان في المقاومة الشعبية، وذهب جليل مع رفاقه إلى تظاهرات بلدة بلعين، وواجهوا جنود الاحتلال بالحجارة. وبدأت مأساة أم جليل في ذلك اليوم، فقد أطلق الجنود على الشبان الرصاص الحي، وأصابت جليل طلقة في الرأس فارق على إثرها الحياة. احتجز الإسرائيليون جثمانه، ورفضوا تسليمه، واحتفظوا به في ثلاجة الموتى.

سقطت صخرة الأقدار على تلك السيدة. أصابها الجنون، وانهارت، ولكنّها بعد أن امتصت الصدمة، بدأت تناضل من أجل استرداد الجثمان. راجعت الأجهزة المختصة في السلطة، راجعت وزارة شؤون الأسرى، راجعت نادي الأسير، ناشدت مكتب الرئيس، ناشدت لجان حقوق الإنسان، شكت لقناصل الدول الأوروبية؛ لكن دون جدوى.

صارت تقضي النهار في المراجعات، وتعمل في الليل وراء الماكينة. وتضامن معها أبناء الشبيبة في جامعة بيرزيت، وقرروا القيام بأنشطة تضامنية دعمًا لها، ولذكرى الشهيد.

لم يشف جرحها بعد، صارت أمنيتها أن تتسلّم جثمان ابنها وتدفنه، بدلًا من أن يبقى في ثلاّجة باردة. كانت تقول إن جليل

لا يقوى على تحمل البرد؛ كان يتغطى في الصيف بلحاف سميك، فلعلّ روحه الآن ترتجف. لعلّ شفتيه زرقاوان من شدة البرد. لعلّ جلده تجمّد وصار مثل جلد سمكة مجمّدة.

أنصت أحمد باهتمام وانتباه، وتداعى في صدره حزن جديد يضاف إلى أحزانه. لم يشرب الشاي، ولم يشرب أبو عمر شايه، كلاهما اغرورقت عيناه.

* * *

خرج محزونًا وقال لنفسه إنّه بحاجة إلى يد دافئة.

أخرج هاتفه النقّال، وأجرى اتصالًا مع نرمين وطلب مقابلتها، فاستجابت، وواعدته. التقيا في مقهى بيستو. كانت مسحة حزن ترتديه من قمّة الرأس حتى أخمص القدم.

سألته برقّة: هل أنت بخير؟

ظلّ صامتًا، فاحترمت صمته، وأدركت أنّه يكابد آلامًا داخلية.

وبعد برهة: أتحتاجين أحيانًا يدًا دافئة حنونة؟

نظرت إلى عينيه المغرورقتين بدمعة، وهزت رأسها فيما انبجست من عينيها دمعة، وكادت تجهش بالبكاء، فأخرجت منديلها، ومسحت عينيه، وقالت: نعم، أحتاج.

مـدّت لـه يدها الدافئة، فتلقفها وأحس بهـا تنبض في كفّه كما لو أنّهـا عصفـور. أبقت يدهـا في قبضة يـده، وباليد الأخرى مسـحت دموعًا انثالت على خدّها.

قال لها بعد برهة: يقول الشاعر: أروع شعر القلب لا يعلن، لكنّه يُقرأ بحاسة اللمس.

انفرجـت شـفتاها عن ابتسـامة أضاءت ملامـح وجهها، ومدت يدها الأخرى واحتضنت يده الأخرى.

كللـت المكان هالة من الأحاسـيس الزاجلـة. كانت تلك لحظة حـب صامت. لـم يقل أحدهمـا كلمة، لكـن المشـاعر كانت تقول كل شيء.

جاء النادل الذي كان يراقب المشهد عن بعد، وحين سحب كل منهمـا يـده من يد الآخر، تقـدّم وقدم لهما قائمة المشـروبات. طلبا هذه المرة كأسين من عصير البرتقال، وبدأ حديث آخر.

ذكر لها حكاية جارته في السـكن السـيدة التي تسهر طوال الليل وراء ماكينة الخياطة وابنها جليل المحتجز في ثلاّجة، وما تعانيه من آلام وشـقاء، فأجابته أنّها سـمعت عنها، وأنّ الصبية اليابانية هياتارو تعرفها وتلتقيها في مقر شبيبة جامعة بيرزيت.

قالــت إنّ هياتــارو عفريتة مندمجة في حركة التضامن، وتشــارك في نشــاطاتهم، وقــد عرّفوها على العديد من مقابر الأرقام الســريّة، وخصوصًا مقابر سريّة قرب جسر بنات يعقوب شمال بحيرة طبرية، كما أنّها تســاعدهم في الترتيبات التي يعـدون لها في إطار المقاومة الشعبية.

وتطرّق الحديث أيضًا لرواية أبو الخير عمّا شاهده في أرضه في منطقة وادي الباذان، وبما يفكر فيه من مشاريع استغلالها وزراعتها، وقــال إنّــه من المبكــر الجزم بما ســيفعله، لكنّــه أكّد أنه لــن يبيعها. وأبدى دهشته مما رواه أبو الخير الذي لم يجد له تفسيرًا بعد.

كان الحديــث لذيــذًا ومؤنسًــا. كانت تســتمع وتتطلّــع إلى عينيه وخديه وتســريحة شــعره وخصلة شــيب عند ناصيته، وحركة يديه، وكان يتحدث ويشــعل سيجارة، ويســحب منها نفسًا ثمّ يركنها على المنفضة ويتركها تحترق وينساها.

وحــان الوقت لتســأله الســؤال الــذي طالما خطر لها أن تســأله: وماذا عن الرواية التي تكتبها عن صديقك سمعان الناصري؟

ابتســم، وقال لها إنّ الدكتور نادر جاســوس ظريــف، وأعتقد أنّه حدّثك بكل شيء عنّي، فشكرًا له.

وحكى لها حكاية سمعان وصوفي، لقاء الغريب بالغريبة، لقاء الولد بقطعة الشوكولاتة، الغدر والوفاء، السقوط والنهوض، الراقصة والبالرينا، الرسام وعلي بابا. وختم بالقول إنه سيكتب الفصل الأخير من الرواية.

أبدت إعجابها بالحكاية، وأبدت رغبتها في قراءتها، فمد يده إلى يدها، كان لحظتها بحاجة ليد دافئة.

الفصل السابع عشر

في وقت متأخر من الليل، جلس أحمد أمام الحاسوب. كانت اليد الدافئة تنقل الدفء إلى روحه، كانت لمسة حب تنقّي ليلته من الشوائب.

سأكتب الليلة الفصل الأخير من حكايتك مع صوفي، لترحل عن اهتمامي، وتغرب عن وجهي.

* * *

أيّها الأفّاق، في ليلة من لياليك كعلي بابا، ارتكبت حماقة قلتها في برلين ووصل صداها إلى وادي الباذان.

اخترعت حكاية من ألف ليلة وليلة، وجعلت جؤذر يرافق السندباد ويشاركه في التجارة في رحلته الأولى، وينتقل من جبل النار هنا في فلسطين إلى بغداد في قافلة تضمّ عشرين بعيرًا تحمل بضاعته من زيت الزيتون والصابون والجلود والأعشاب الطبيّة، ويركب الفلك مع السندباد، ويبحران مع العديد من التجار، وتمخر المركب عباب البحار، وتُعدّي من ميناء إلى ميناء، ومن جزيرة إلى

جزيرة، ومن بر إلى بر، وكل مكان ترسو به المركب، حيث يبيع التجار، وهما منهم، بضائعهم ويشترون ويقايضون.

وذات يوم، اضطرب البحر، جُنت الرياح العاصفة، ارتفعت الأمواج، وترنحّ المركب، فقاد ريّس المركب مركبه بكل ما يملك من دراية ومعرفة، وشاهد من بعيد جزيرة، فأمر بحّارته بشد الهمّة، والتجديف نحوها، وعندما اقتربوا منها هدأت العاصفة، وهدأت الأمواج.

أرسى الريّس مراسي المركب على شاطئها، ونزل التجّار ينظرون إلى أشجارها. كانت مليحة المنظر، فيها أشجار وثمار وأطيار، فكأنّها روضة من رياض الجنّة.

نزل التجار وأنزلوا معهم أواني الطبخ والخضار واللحوم، ونصبوا الكوانين، وأشعلوا النيران، وطبخوا وأكلوا، ونام منهم من نام، وذهب جؤذر مع السندباد يتفرجان على الجزيرة وأسرارها، حتى سمعا صوت ريّس المركب ينادي بأعلى صوته: أيها الركّاب، سارعوا إلى المركب، واتركوا متاعكم، وانجوا بأنفسكم، هذه ليست جزيرة، إنّها سمكة عملاقة كانت نائمة وغمرها التراب الذي تحمله الرياح من عشرات السنين، فنبتت فيها الأشجار من كل نوع، والأطيار من كل جنس، ولمّا أوقدتم النار وشعرت بلهيبها تحركت من مكانها نحو البحر، عودوا قبل أن تهلكوا وتغرقوا في البحر.

صعد إلى المركب من صعد، ومن تخلف غرق في البحر، وزعمتَ أنّ السندباد وجؤذر تخلفا ولم يتمكنا من اللحاق بالمركب، وأنّهما وجدا أنفسهما بين الأمواج يشرفان على الغرق، وزعمت أنّ جؤذر وجد قطعة خشب تعلّق بها وظلت الأمواج تدفع به ليلًا ونهارًا إلى أن أوصلته إلى شاطئ جزيرة وقد أكلت الأسماك أطراف أصابعه وقدميه، فنام يومًا وليلة، وعندما استيقظ، كان مرهقًا ومتعبًا.

زحف نحو نبع وسط الأشجار المثمرة، فشرب حتى ارتوى وأكل من الثمر حتى شبع، وكان يرغب في التجول داخل الجزيرة فانتظر ريثما تشفى جراحه، ثم صنع من جذع الشجر عكازين، وتنقّل في أرجاء الجزيرة، فرأى من بعيد فرسًا مربوطة بسلسلة، فتوجّه إليها وقال في نفسه: أمتطيها وأتنقل بها، وفجأة، ظهر له رجال يحملون السيوف، فطلب منهم الأمان وحكى لهم حكايته، فأعطوه الأمان، وبعد أن اطمأنوا له، حكوا له حكايتهم، وقالوا له إنّهم من خدّام الملك مرجان ملك البلاد البعيدة الذي يباهي الملوك بجودة الخيول، حيث يرسلهم لهذه الجزيرة التي تعيش على شواطئها خيول البحر التي تسبح في المياه كالأسماك، وتطير في الجو كالطيور.

قالوا إنهم يربطون الفرس الأصيلة بالسلاسل فيأتي حصان البحر ويجدها مربوطة فيثب عليها ويركبها ويلقّحها، ولمّا يفرغ منها يرغب في أخذها معه إلى البحر، فنخرج إليه من مخبئنا بالسيوف ونطرده، ونأخذ الفرس الملقّحة إلى سرداب، ونبقيها حتى تلد مهرًا مطعّمًا من تزاوج البر بالبحر، ليس له مثيل.

جاءوا بفرس أصيلة أخرى وربطوها بالسلاسل، فانتظر معهم خروج حصان البحر، فما مرت ساعتان، إلاّ وحصان البحر يخرج من الماء كأنه الأسد الكاسر، وهو أعلى من الخيول وأعرض وأغلظ، وتقدّم من الفرس المربوطة وقفز عليها، ولمّا فرغ منها، حاول أن يأخذها معه، فخرجوا إليه بالسيوف والرماح فهرب وعاد إلى البحر.

بكى جؤذر أمامهم، فطيّبوا خاطره وسألوه عن سبب بكائه، فقال لهم: أريد أن أعود إلى بلادي، وليس من سبيل إلى ذلك إلاّ امتطاء حصان البحر ليطير بي إلى بلادي.

تعاطفوا معه، وربطوا الفرس الأصيلة، وعندما خرج حصان بحر ووثب على الفرس وقضى وطره، ونزل عنها هجموا عليه بالشباك، وسيطروا عليه، وسهروا على ترويضه واستئناسه، فصار مطيعًا ذليلًا.

هكـذا أنهيـت يـا علـي بابـا الحكايـة التـي لفّقتهـا وبدّلـت فيها وغيرت. جعلـت حصان البحر يطير بجوذر بن عمر إلى جبل النار، يأتـي إلـى وادي الباذان ويصبـح ملك الجبال والوديان والبسـاتين، وملـك الذئاب والغـزلان والطيور في أعشاشـها، ومرقده الكهوف والسراديب وجوف الأشجار.

كانت تلك حكايتك الأخيرة لجمهور العيون الزرق. كانت تلك آخر ما قدّمه الحكواتي المتزمل في ثيابك، وفي ثياب علي بابا.

وحدهـا صوفـي أنقذتـك مـن شـخصية المهرج، وأعـادت لك رشدك.

وأكتفـي الليلـة بهذا القدر، ولـن يكون هذا هـو الفصل الأخير، وللحكاية بقية.

الفصل الثامن عشر

دعته اليد الدافئة لزيارتها في البيت.

استحمّ، وحلق ذقنه، ولبس ملابس أنيقة. وقف أمام المرآة يعقد ربطة عنقه، ولاحظ خطوط الشيب في شعره، فابتسم. كان الشيب يعطي لمظهره رزانة. حدّث نفسه: شابت نواصي الليالي فانحنت، لكنني لم ولن أنحني.

في طريقه إليها، توقف عند بائع الزهور، وانتقى باقة من الزنبق وعُرف الديك.

نقله المصعد إلى الطابق الخامس، وضغط على زر الجرس، ففتحت الباب بابتسامة أضاءت وجهها.

قدّم لها باقة الورد، فتناولتها، وانحنت نحوه، وقبّلته من خديه عرفانًا وودًّا.

قال لنفسه: عليك من الآن فصاعدًا أن تتعلم إتيكيت الأرستقراط الاجتماعي.

قادته إلى الصالة، ووضعت الباقة على طاولة الوسط أمام الكنبة، ورحبت به بصوت مثل رنين الذهب.

شكرها وعبّر عن محبته لها، واعتزازه بها.

دخل شقيقها خليل وسلّم عليه بالأحضان، وكان يرتدي ثياب الخروج، وبيده مفاتيح السيّارة. سلّم واعتذر وقال إنّه ذاهب مشوارًا قصيرًا، ولن يتأخر.

خرج خليل، وبقيا وحدهما. كانت تلبس فستانًا بلون أزرق، مثل فساتين السهرة، قصير الكمّ ومعه شال شفّاف، وتتدلى من جيدها سلسلة ذهبية، ومن أذنيها قرطان بلون الفستان، فكأنّها ذاهبة إلى سهرة.

ياه، كم هي مبهجة!

بحث عن كلمات يقولها للثناء على لباسها، وعندما التقت الأعين، أتته الجرأة، فرفع إبهام يده، ورسم ابتسامة، وقال: كم أنت ساحرة!

ارتبكت للحظة، وقالت بخفر ودلال: عيونك الحلوين.

ثمّ استأذنته، وخرجت من الصالون بهدوء.

خرجت فتأمّل هذا الصالون الذي يتسم بفخامة وبساطة معًا، وانتبه إلى أن هناك في الزاوية مدفأة حطب، فوقها صور للعائلة

تمثل مناسبات ما، وعلى الحائط صورة لوالدها في إطار باللونين الأبيض والأسود يبدو فيها رزينًا وحكيمًا وقد غزا الشيب شعره، وإلى جانبه إطار آخر لصورة والدتها في شبابها، وتبدو في الصورة مفعمة بالجمال.

عادت نرمين إلى الصالون تحمل صينية عليها كوبان من العصير، فتقدمت منه وانحنت تضيّفه. كانت قريبة منه، شمّ عطرها، ودّ لو مدت له يدها الدافئة ليحتضنها، كان بحاجة ليد دافئة.

تناول الكوب، فوضعت الصينية الصغيرة التي تشبه تحفة فنية على الطاولة، عندها مد إليها يده فالتقطت يده وضغطت عليها ضغطة واحدة، ثمّ سحبتها، وعادت سريعًا إلى مقعدها.

احمرّ وجهها، وبدا عليها الارتباك.

حاولت أن تجرّ الحديث إلى نحو آخر، فسألته عن أخباره، وأخبار الأرض التي يملكها في وادي الباذان، وعمّا قيل من أن مرافقه السابق رأى فيها ما رأى. كانت -كما يبدو- تريد أن تملأ الوقت ريثما يعود خليل. فقد سبق لها أن سألته هذا السؤال في لقاء سابق.

وسألها بدوره عن الشعنونة هياتارو، تلك الصبية اليابانية المشاغبة والظريفة، فاسترسلت في الحديث الطريف عنها، واندماجها مع الشبيبة الذين ينظمون التظاهرات، ويشتبكون مع

حواجـز الاحتـلال، والذين رافقوها إلـى مقابر الأرقـام في الجليل الشـرقي، فصوّرت ووصفت تلك المقابر التـي تتعرض للانجراف من الأمطار والسـيول، وتطيح بلوحات الأرقام، وتكشف عن عظام الشهداء وتجعلها نهبًا للذئاب والكلاب المسعورة. كتبت عن هول مـا رأته، وأرسـلته إلى الصحيفـة اليابانية التي تراسـلها. وقالت إنها صـارت تغيـب عن البيـت كثيرًا بسـبب ذلـك، لكنّها سـتعود الليلة مع خليل.

رنّ جرس الباب، قامت برشاقة كما لو أنّها تعرف من القادم.

انفتـح البـاب ودخـل الدكتـور نـادر يحمل بـدوره باقـة ورود، ورحّبت به بحرارة، وقادته إلى الصالون.

صافـح أحمد صاحبه الطبيب بحرارة، وأضفى حضوره جوًّا من المؤانسة، واغتنمت نرمين الفرصة ووضعت الورود في المزهريات، وقدّمت لهما القهوة.

رنّ جرس الباب من جديد.

كان القـادم الخـال أبو مجدي وزوجته، المُسـنّين اللذين ما زالا يحتفظان ببنية قويّة. دخلا يحملان هديّة ملفوفة بورق الهدايا.

عرّفتهم بعضهـم على بعض، ومنذ الدقائق الأولى، أبدى الخال الـذي يلبـس حذاءً رياضيًّـا وبدلة رياضـة، ويضع على رأسـه قبعة،

أبـدى ظُرفًا وأطلـق طرفة عن رجل عجوز مثلـه تغلّب على إبليس، ليؤكد أن العجائز يمتلكون المهارة، فضحك الجميع.

وأضـاف أنّ زوجتـه التـي جلسـت بثـوب جميـل يمنحهـا أبّهة تقول إنّه يشـبه (سبنسـر تراسـي) بطل فيلم الشـيخ والبحر المأخوذ عـن رواية همنجـواي، فأنا مثله صيّـاد ماهر؛ بدليل أننـي اصطدتها بصنّارتـي عندما التقينا لأول مرة على شـاطئ حيفـا، وكانت عيناي صنّارة، وجسدها المنحوت هو السمكة.

نشر الخال جوًّا حميمًا، ورفع الكلفة معهم، وظلّ واقفًا، فجذبته زوجتـه العجـوز التـي لا يخلـو وجههـا من ملاحـة، وقالـت: اقعد يا رجل. اقعد وخليك رزين. بدأ الخرف يصيبك.

جلس، ووضع رجلًا فوق أخرى، وقال: سـأدعو أسماك القرش لتأكلـك وتصلي إلى الشـاطئ هيـكلًا عظميًّا إذا وصفتنـي مرة ثانية بالرجل الخرف.

ضجّ الجميع بالضحك، في حين توقف الخال عن الكلام.

وأخذ الحديث الدكتور نادر، وأعاد الجو إلى ما كان عليه، فقالت نرمين إنّ الخال يتسـم بخفة الدم، ولا يتحـرّج من رفع الكلفة؛ لأنّه يعتبر أن كل بني البشر أصدقاؤه.

رنّ جـرس البـاب، وقبـل أن تقـوم نرميـن لتفتحـه، كان خليـل قـد فتحـه، فدخلـت أولًا الصبيـة اليابانيـة هياتارو، دخلت يسـبقها

ضجيجهـا وصخبها وهـي تغني أغنية مـا، ربما أغنيـة يابانية. دخلا يحمـلان أكياسًـا وعلبًـا كرتونية، مشـتريات دخلا بها إلـى المطبخ والتحقت بهما نرمين.

ما الذي يجري؟ سـأل أحمد صاحبه الدكتور. أهي دعوة عشاء؟ خيّل إليه أنه سيمضي السهرة بالمجاملات.

قال نادر: لا أعرف. أنا دعيت مثلك.

وكان الخال الذي أثار المرح، قد أسند ظهره إلى الكنبة وأغمض عينيه في غفوة.

وعندما عـادت نرمين، نظرت إلى الخال، وابتسـمت: إنّه يكون على هذه الحال عندما يشرب النبيذ.

قالت زوجة الخال: غفوته قصيرة على كل حال.

دخـل خليل، وجلـس وقد بدا عليه فرح ونشـوة. أجـرى حديثًا ومجاملـةً مـع ضيوفه، جامل أحمـد والدكتور نـادر، وجامل زوجة الخـال، وترك نرمين تجامل من تشـاء. وحان الوقت لتدخل الصبية التي ستقود مجريات السهرة.

دخلـت هياتارو باللبـاس التقليـدي الياباني، دخلـت بالكومينو المزركـش بألوانـه الزاهية، كأنّ كمشـة ورد قد نُشـرت عليه، كومينو بأكمام واسـعة طويلة، وسـطه زنّار مربوط من الخلف، ومن الأمام

وضعت تحت الحزام ما سوف تستعين به عندما تؤدي الرقصة، كما كانت تلبس في قدميها حذاءً خفيفًا من القماش أبيض اللون، وعلى وجهها مساحيق، وشعرها مرفوع إلى الخلف ووسطه مشبك.

وقفت، وانحنت، وأدت لهم تحية المساء، فتعلَّقت بها العيون.

صفّقت نرمين بحماس، وتبعها الآخرون، وفتح الخال عينيه، ورأى المشهد، وصفّق بدوره، ووضع إصبعيه في فمه وأطلق صفيرًا.

قالت هياتارو: أرحّب بالجميع بمناسبة عزيزة على قلوب العائلة، مناسبة عيد ميلاد أم عائلتنا نرمين، نرمين الشقيقة الكبرى. ونفتتح هذا الحفل الذي أُديره برقصة تقليدية من بلدي اليابان، عنوانها: عندما يزهر الكرز، رقصة تقليدية من نوع (نيهون بويو).

فوجئ أحمد، لم يكن يتوقّع أن تكون الدعوة دعوة مناسبة، وأن تكون مناسبة عيد ميلاد اليد الدافئة!

قام خليل بتوسيع المساحة، فأبعد الطاولات الصغيرة، والكراسي غير الضرورية، لتتمكن هياتارو من أداء رقصتها دون عائق.

عند ذلك، أشارت الصبية بيدها إلى نرمين، كانت نرمين على أتم الاستعداد، فشغّلت قرص الموسيقى.

الفصل التاسع عشر

سالت موسيقى اليابان التقليدية في فضاء الصالون، وفاضت حتى غمرت كل فسح البيت.

بدأت هياتارو برقص يشبه صلاة، تحرّكت على رؤوس أصابعها، وبدا خف القطن في قدميها ينسج سجادة فرح تأتلف مع نغمات آلة الكوتو الوترية.

تمشي ثمّ تعتدل، وتستدير محرّكةً أردان الكومينو المزدان برسوم الزهور، ثمّ، ومع موسيقى آلة الشامسن، تُخرج يديها من أردانها وتؤدي ما يشبه الطقوس البوذية بتحريك رقبتها ذات اليمين وذات الشمال، وملامسة خديها وهي تتحّرك بخطوات ذات مغزى.

وبعد خطوات في مديح الربيع ونوّار الكرز، تستلّ من حزامها مظلة حمراء بلون الكرز، وتفردها، وتؤدي ما يشبه صلاة شكر للخصب، وتدير المظلة وتجعلها تدور كأن رياح الربيع الناعمة تلاعبها، ثم تتناول من حزامها ما يشبه غصنًا تتفتح على جوانبه

الزهـور، وتقوم بحـركات على امتـداد المكان تأتلف مع موسـيقى ناي (الشاكوهاتسي) التي تعلو حتى ذُرى مرتفعات جبل (فوجي).

أنهت عرضها الجميل بالرقص بمصاحبة المروحة التي تبترد بها نسـاء الحصاد بعد أن يملأن الجـرار بالجعة، أو تبترد بها واحدة من نسـاء (الغيشـا) بداخلها صفصافة. وأنهت رقصهـا بانحناءة طويلة، فصفقوا لها بحرارة، ثمّ انسلّت إلى الداخل.

أثنـوا علـى أدائها، وصـار الحديـث أيضًا عن عظمة الموسـيقى وآلات العـزف الوتريـة، وآلات النفخ السـاحرة، وشـرحت نرمين دلالات الرقصة ومعانيها السامية. وعلى الرغم من أنّ هذا النوع من الموسـيقى جديد عليه، فإن أحمد أعلن اسـتمتاعه. أما الخال، فقد وضع إصبعيه في فمه وأطلق صفيرًا، وكرر ذلك عدة مرات.

عـادت هياتـارو إلـى الصالون وقـد اسـتبدلت ثيابهـا التقليدية، ولبسـت ملابسـها العصرية من قماش الجينز. ووقفـت مثلما يقف عريـف الحفـل وقالت: شـكرًا لكـم، وأرجـو أن تكون الموسـيقى والرقـص قد نالا إعجابكم. لقد حرصنا علـى أن تكون هذه الحفلة مفاجـأة، لكي لا تشـتروا للشـقيقة الكبرى هدايا وتدفعـوا ثمنها من جيوبكـم، مطلوب منكم أن تحضروا لها هدايا الأسـبوع المقبل في مثـل هذا اليوم. وللهدايا شـروط، وأنا صاحبة الفكرة. يتعين عليكم أن تسرقوا الهدية من متجر أو مقهى أو فندق أو مطعم، أو أي مكان

يـروق لكــم، تسـرقوا، على سـبيل المثال، منشـفة حمّام مـن فندق خمـس نجوم، أو منفضة سـجائر عليها (لوجـو) مقهى معروف، أو أي هدية مسروقة عليها إشارة ودمغة.

قهقه الخال، وضحك أحمد، وقال الدكتور نادر: هذا أمر سـهل بالنسبة إليّ.

قاطعتـه هياتـارو مشاكسـة: أنـت بالـذات لـن نقبل منـك هدية لهـا علاقة بمستشـفى الهـلال، نريد منك هديّة مسـروقة من شـركة الاتصالات؛ موبايل مثلًا.

ضحكوا، وكان أحمد مندهشًا، ومستمتعًا بهذا المرح.

وعـادت هياتـارو إلى كلامهـا: وفي مثل هذا اليوم من الأسـبوع المقبـل، نقـوم بفـرز المسـروقات، ويصـوّت أفـراد العائلـة الذين يقيمون في هذا البيت على أشـطر حرامي، وتمنحه الشقيقة الكبرى جائزة، والجائزة تذكرتا سـفر إلى منتجع شـرم الشـيخ على الدرجة السياحية.

وبـدأت التعليقات، والممازحات، فقـال الخال ضاحكًا: تذكرة لمن يفوز، وتذكرة لخليلته.

حدجتـه زوجتـه بنظرة لا تخلـو من التأنيـب، فقهقـه قائلًا: حد بيروح على شرم الشيخ وبياخد سندويشته معه يا هبلة؟

أنقـذه مـن غضبهـا تعليـق مرح مـن الدكتـور نـادر: كلنـا عندنا ساندويتشات ما عدا مالك الحزين هذا.

وأشـار إلـى أحمـد، فضحك أحمـد، وردّ قائـلًا: اطمئن. حظي سيئ؛ فلم أربح جائزة في حياتي.

وواصل الخال ظرفه: إذا فاز مالك الحزين، أشتري منه التذكرتين بثلاث زجاجات نبيذ فرنسي مستورد.

ردّ عليه خليل: لكنّ السيد أحمد لا يشرب الكحول.

فأجاب الخال: إذًا أشتريها بكرتونة بيرة خالية من الكحول.

كان الجو وديًّا، وكانوا مثل أطفال يلعبون في الهواء الطلق.

لـم تعقّب هياتارو علـى تعليقاتهـم، وواصلت الـكلام: والآن، وقبل أن نضع الكعكة ونقطعها، هناك حديث لأحد أفراد العائلة في مديح الشقيقة الكبرى، وهذه النمرة لا تعرف بها نرمين.

اعتـدل خليل في جلسـته، رمـق نرمين بنظرة حنونة وهيّأ نفسـه. تنحنح، وبدأ الكلام:

الحديث عن شـقيقتي الكبرى لا يمكـن اختصاره أو الإحاطة به في مثل هـذا الوقت القصير الذي حدّدته لي حبيبتي هياتارو. نرمين هـي أمّي الثانية. هي التي كانـت تحمّمني عندما كانت أمي على قيد الحيـاة، وهي التـي ربتني بعد وفاة أمّي. ولعلنـي أذكر مثَلين فقط لا

يغيبـان عن ذاكرتي الطفولية: الأول يتعلق بالبطاطا؛ فقد كنت أحب البطاطا المشـوية، وكانت والدتي تمنع عني كل طعام فيه نشويات؛ لأننـي كنت سـمينًا وهـي لا تريدني أن أكون كذلـك، فكانت نرمين عندما تغيب أمّي عن البيت تستغل الفرصة وتشـوي لي ما أشاء من البطاطـا، وكانت الوالدة في حيرة من أمرها دائمًا، وتسـتغرب كيف لا تفلح محاولاتها في إنقاص وزني.

استحسـن الخـال ذلـك، وصفّق له قائـلًا: برافو. وأنـا كنت وما زلت أعشق البطاطا المشوية، الولد طالع لخاله.

ضحكت نرميـن، فيما واصل خليل الـكلام: المثل الآخر الذي مـا زال عالقًا فـي ذاكرتي، والذي يفصح عن مـدى حبّها لي، عندما اشـترى لهـا والـدي فردتـيْ حلق مـن ذهب بمناسـبة عيـد ميلادها وهي في الثامنة من عمرها، فرحت كثيرًا بالهديّة، ولشـدة حبّها لي، وضعـت فردة حلق في أذنها اليسـرى، ووضعت الفردة الأخرى في أُذني اليمنى بعد أن خرمت شحمة الأذن.

وتوقف لحظة، وأشار إلى أُذنه اليمنى، وقال: انظروا إلى شحمة أذني هذه، فهي لا تزال مخرومة حتى الآن.

واو. هتفت هياتارو، وعلّقت قائلة: لم ألاحظ ذلك من قبل. إنّها المرة الأولى التي أعرف فيها ذلك.

ثـمّ التفتـت إلـى خليـل، وقالـت: بقـي من وقتـك سـبع دقائق. أكمل.

عبـرت مسـحة حزن علـى وجهه، فابتلـع ريقه، وقـال: لا يكفي الوقـت لأحدثكم عن لحظات عاطفية غمرتني بها نرمين، شـقيقتي الكبرى الجميلة، وحجم التضحيات التي قدمتها للعائلة، خصوصًا بعـد رحيل الوالدين، ونظرًا لقصر الوقت المخصص لي، فيكفي أن أذكر لكم كيف أنقذتني من موت محقق.

لقد عانيت منذ الصغر من متاعب في الكلى، ومع مرور السـنين تفاقم الوضع، ودخلت في مرحلة غسيل الكلى، وكنت في المرحلة الثانوية.

تركت وظيفتها، وكرّست كل وقتها لي، رعتني باهتمام، وسهرت علـى راحتـي، وكانت ترافقني في جلسـات الغسـيل، كنت بعد كل جلسة أعاني من فشل عام، وعندما أصحو من نومي، أجدها تجلس بجانبـي وهي تذرف الدموع. وتفاقـم الوضع، فقرر الأطباء ضرورة استئصال الكليتين، وزرع كلية جديدة، ولا بدّ من متبرع.

أبلغت الأطباء أنّها هي المتبرّعة.

حـدث ذلـك أثنـاء الانتفاضـة الثانيـة، وتفاقمـت الحالـة أثنـاء الاجتيـاح الإسـرائيلي لمدن وقرى ومخيّمـات الضفّة، وفرض منع التجوال.

وأثنـاء تطوّر الأحداث والهجوم على مبنى المقاطعة بالدبابات، ومحاصـرة أبـو عمّـار، أصبـح الوضـع صعبًـا، وغصّ المستشـفى الحكومـي في رام الله بالمصابين، وثلاّجته بالجثث، ولـم تعد هناك إمكانيـة لإجـراء الفحـوص اللازمة، فضـلًا عن عدم وجـود طبيب مختـص، فاقتـرح عليهـا الأطبـاء تحويلي إلى مستشـفى (شـعاري تصيـدق) فـي القدس الغربيـة، لكنها رفضت اللجوء إلى مستشـفى إسرائيلي، فكان البديل السفر إلى عمّان وإجراء العملية هناك. وكان وضعي يسوء، وأمضت أسـبوعًا مضنيًا وهي تحاول الحصول على سيّارة إسعاف تنقلنا إلى الحدود الأردنية.

عنـد ذلـك، احتقن وجهه، وبـدا عليه ما يشـي بنوبة بـكاء، لكنّه تماسـك، وواصل الكلام: لن أطيل عليكم. أخذتني في سـيارة نقل فـي طـرق التفافية لتجـاوز الحواجـز، وكانت حينهـا رام الله تحت سقف النار.

وصلنا الحدود الأردنية بشـق الأنفس، ومن هناك، طلبت نرمين سـيارة إسـعاف مع طاقم طبـي للإنعـاش، ونقلوني فـورًا إلى غرفة الإنعـاش، وأجروا الفحوصات اللازمة لنا، وبعد أيام قليلة، أُجريت لي عملية زرع كلية انتزعت من أحشاء شقيقتي.

واحتقن من جديد، وبدت في صدره غصّة، وفجأة انهار بالبكاء، فنهضت نرمين فزعة وحضنته وهي تبكي.

سـرى فـي الصالـون وجـوم، وسـارعت هياتـارو واحتضنت الاثنين.

ووقف الخال، واكتسى وجهه بالصرامة، ورفع صوته عاليًا:

كفـى. لا تحولوا الفرح إلى مأتـم. كفكف دموعك يا ابن أختي، ولنعـد الحفلـة إلى ما كانـت عليه. هيّا يـا نرمين، هيّا أيتهـا العفريتة اليابانية.

ثـمّ انتقل إلى أحمد وصديقه الطبيب: وأنتما، لماذا تعبسـان ولا تقولان كلمة طيبة؟

وأدار وجهه إلى زوجته: وأنت يا ست بدور، هيّا. افعلي شيئًا.

مسـح خليـل دموعه، وانسـلّ مـن بين يـدي نرمين، وأبعـد بيده هياتـارو، ووقف، وقدم للجميع اعتذارًا، ثـمّ قرّب نرمين منه، وقبّل رأسـها وضمهـا إليه، ثمّ فتح ذراعيـه وقال: ما كنـت أرغب في هذا الإزعـاج، اعذرونـي. هل يتطـوع أحد منكـم ليسـاعدني في حمل قالب الكيك وإحضار العصائر والأطباق؟

حدثت انفراجة، وخفّ الجميع لمسـاعدته، وفي غضون دقائق، تحلّقـوا حـول الطاولة، وأحضـرت هياتـارو الكاميرا، واسـتعادت نرميـن، بفسـتانها الأزرق، رونقهـا، وصارت محط أنظـار الجميعَ، فتورّد وجهها.

كانت الكعكة كبيرة، مغطاة بالشوكولاتة، وكتب عليها اسمها، وفي الوسط شمعة. أشعل خليل الشمعة، ومثل المايسترو أعطى الإيعاز، فاقترب الجميع بعضهم من بعض، وأحاطوا نرمين من كل جانب، بينما هياتارو تلتقط الصور.

انحنت نرمين لتطفئ الشمعة، وانطلقت الأصوات بالغناء والتهاني وأطيب التمنيات. أطفأت الشمعة برقّة وأناقة، وعلت الأصوات بمزيد من الغناء والتصفيق.

وقُطعت الكعكة، وتوزعت على الجميع، وتألقت الأجواء، وتلقت نرمين التهاني بالأحضان، وظل أحمد يراقب نرمين، يراقب الفرح الذي يقفز من عينيها، ويحوّلها إلى حمامة زاجلة.

الفصل العشرون

ظهر أبو الخير أخيرًا.

طرق الباب ودخل. دخل يلبس ملابس مدنية، وكالعادة، يحمل في يده كيسًا من ورق تطلّ منه أوراق خضراء يانعة.

طرح السلام وبدا مثلما كان في السابق عفيًّا وفيًّا.

فوجئ أحمد، وردّ عليه السلام.

وضع الكيس أمامه. كان الكيس على ما يبدو محشوًّا بخضار الخس. أخرج واحدة ووضعها أمامه على الطاولة الصغيرة، وقال:

هذه الخسّة من إنتاج أرضك. هل تصدق؟

نظر إليه باستغراب، ودقق في ملامحه ليتأكد إن كان لا يزال مريضًا أم لا، فقرأ أبو الخير أفكاره، وقال: اطمئن. أنا أمتلك أهليّتي العقلية.

وأضاف: وأكثر من ذلك، الطبيب النفسي الذي أرسلتموه إليّ، يحتاج قبل غيره إلى علاج!

امتلأ أحمد بالدهشة، فوجئ بعبارته وجدّيته وثقته بنفسه.

أحقًّا هذا هو أبو الخير الذي عرفته؟

قال له: على مهلك. فسّر لي. اشرح لي. قل لي.

كان أبو الخير يجلس برزانة ووقار. وبصوت هادئ تساءل:

ماذا أفسّر؟ ماذا أشرح؟

أجابه أحمد: لا أدري ماذا. أنا مندهش. نعم مندهش!

قام أبو الخير، وحمل الخسّة السمينة، وذهب إلى المطبخ، وعاد بها مغسولة، ومشذّبة ومحمولة على صينية، ووضعها أمامه، وقال:

انظر، خسّة مثل الوزة، لها طراوة أوراق النعنع، ومذاق السنّارية والشومر والهندباء إذا جمعتها معًا. والتقط ورقة من الخسّة، وقدمها له، وقال:

كلها وجرّب مذاقها. إنّها من الأرض التي تحبها، الأرض التي كان سمادها عرق أجدادك.

وأضاف: ألم تكن تقول لنا بمحاضراتك في المعسكر: الأرض للسواعد التي تحرّرها؟ هذه الخسّة من أرضك، وأنا الذي زرعتها.

كان أحمد في حالة ذهول. كان يستمع وهو مندهش للغاية.

التقط أحمد ورقة الخسّة، ورفعها إلى فمه، وقضم طرفًا منها ولاكها، أحسّ بعصيرها على لسانه، وشعر بحنين لشعار: الأرض للسواعد الثورية التي تحرّرها.

وأكمل أبو الخير كلامه: تعلّمت من هذا الذي حدث معي أنّ الأرض كائن حي، وأن اليهود لن يجرّوا الأرض من مكانها، وكل الغزاة لم يجرّوا الأرض من مكانها.

علّمني جؤذر أن للأرض حواسّ خمسًا، ولترابها ملمس مثل ملمس الحنّاء، ولها عطر نشمّه في النقاء بعد المطر، ولها عيون ممثلة بالينابيع التي تنبجس من أحضانها، ولها سمع من خلال نباتاتها التي تنمو على صوت غناء الرعاة، وصوت شبّاباتهم. والأرض عندما تطؤها أقدام الفدائيين والفلاحين وأولاد البلد، تتكلّم عربي، ألم تسمع أغنية: الأرض بتتكلم عربي؟!

لم يصدق أحمد أُذنيه: أيكون حقًّا هذا أبو الخير؟ أم أنّه يشبّه لي؟

وبادر لسؤاله: من أين لك هذه الفصاحة؟

ظلّ أبو الخير يحافظ على جدّيته، فأجاب:

تركت البيت منذ ثلاثة أشهر، وقررت أن أذهب إلى الأرض لأتأكد أنني بكامل قواي العقلية أو لا. ذهبت إلى حيث يعيش جؤذر لكي أتأكد أن كان ما حدث معي حقيقة أم خيالًا.

هزّ أحمد رأسه وتساءل: وهل وجدته؟

أجابـه: لا. لـم أجده، ولكنّه صـار يزورني في المنـام. وكل مرّة كان يطلـب أن أفـي بوعدي بأن أزرع الأرض وأسـقيها وأعتني بها، وقد فعلت.

- وحدك؟

- لا. سـاعدني الشـبيبة الفتحاويـة وطلبـة جامعـات وبعـض المتضامنين الأجانب.

ثـمّ أضـاف: جئت لدعوتك للاطـلاع على ما فعلنـاه. غدًا آتيك باكرًا ومعي سيارة جيب وأصطحبك هناك، إلى الأرض.

ووقف ينتظر الجواب.

فكّر أحمد قليلًا، وأجاب: أنتظرك بعد صلاة الفجر.

* * *

ذهب أبو الخير وخلّف وراءه حيرة، فكأن أبو الخير جنّي يخرج مـن قمقـم، كأنه كتلـة من الشـك واليقيـن، كأنه خليط مـن الجنون والحكمة.

يا لكذبة نيسان التي تتحمل الصدق!

في داخل أحمد مونولوج شخصيّة في رواية، تترنح بداخله الهواجس، وفي المخيال متاهة. لا يستطيع عقله أن يمنحه جملة مفيدة. مخيّلته لا تستطيع أن تذهب بعيدًا. يستطيع أن يفسر كيف يخرج الساحر من قبّعته أرنبًا، وكيف يخرج الحاوي من جرابه أفعى، لكنّه يعجز عن أن يفسّر هذا التحوّل عند ذلك الجندي البسيط والطيّب الذي يقدّس الواجب.

كثير من الظواهر الطبيعية لا تجد لها تفسيرًا، كثير من العالم اللاورائي لا تدركه الأدمغة، فما بالك لا تجد تفسيرًا لهذه الخرافة إلاّ الجنون؟!

تعب حتى الصداع، واستجدى لحظة يقين، ومقدار كسرة من السكينة.

* * *

جلس أمام الحاسوب، وقرر أن يفرغ شحنة وجع بالكتابة، فلعلّ ذلك يعيد للقلب طمأنينة.

أكتب عنك هذا اليوم يا سمعان الناصري وأنت تخلع ثياب علي بابا إلى الأبد برواية حكاية جؤذر، تنهي حكايته عندك لتبدأ حكايته عندي. أيكون جؤذرك هو جؤذري؟ أم أنّ المسألة مسألة تشابه أسماء؟ أيكون قد أفلت منك في لحظة غفلة؟ أيكون قد هرب

إلى جزيرة السلحفاة، واستأنس حصان البحر الذي يعشق أفراس البر؟! أيكون حصان البحر قد عبر به البحار، وطار فوق اليابسة، وعبر الحدود دون أن يمر على الحواجز الإسرائيلية، وهبط به على مرتفع من مرتفعات الباذان وسط الطبيعة الساحرة ذات الجمال المستدام، التي خلقها الله منذ الأزل؟!

سأكتب عنك كيفما اتفق، وعليك أن تتحمّل هذيان خيالي المنفلت مجاراة لصديق ورفيق درب أطلق لخياله العنان، ولعلّ جنونه مجرّد توارد خواطر مع جنونك.

سأكتب عن الغيرة التي صارت مثار صراع بينك وبين صوفي، فقد حقق برنامج الحكواتي علي بابا تفوّقًا على برنامج الرقص الشرقي.

جمهورك في تزايد، وجمهور الرقص بدأ يتراجع. وسائل الإعلام المحلية تكتب عن قصصك وطريقة أدائك وسحر خيالك، في حين قلل بعضها من فن الرقص الشرقي الذي يدهش للوهلة الأولى، ثمّ يفقد سحره المبالغ به.

وحاولت صوفي أن تبتدع أساليب جديدة للحاق ببرنامج الحكواتي علي بابا، بل للتفوق عليه، لكي تشذّب غرورك ومحاولة التعالي عليها.

بدأت الحرب الباردة بينكما، حرب صامتة وقودها حسد ونظرات سخط وبرودة عواطف، وسخنت هذه الحرب، وكادت تطيح بك، وتطردك، وتعيدك من جديد إلى الرصيف.

لكن قلب صوفي لا يطاوعها. صوفي قلبها صافٍ. صوفي غير متسرعة. صوفي صارت تفكّر بعقلها وعواطفها معًا. صوفي في النهاية اتخذت قرارها الأخير.

دعته إلى العشاء، اصطحبته بسيارتها وساقت طول الطريق من الضاحية إلى مدينة برلين. لم يتحدّثا طوال الطريق إلا بما هو ضروري. أوقفت سيارتها أمام المطعم الذي سبق لهما أن تعشّيا به ذات ليلة أيام العشق الجميل.

جلسا في الزاوية نفسها التي جلسا بها في تلك الليلة التي كان لها مذاق النبيذ.

قامة الشوكولاتة كانت تلبس فستانًا فاتنًا، وكانت قد حوّلت شعرها إلى ضفائر على الطريقة الأفريقية.

طلبت من النادل زجاجة نبيذ أحمر، وكأسين طويلين مثل الكؤوس التي كان يشرب بها الرسام جويا. طلبت دون أن تشاوره، وبدآ الجلسة بالمشروب.

لم يعترض، وكان لديه شعور أنّ لديها ما تقوله، ولا بأس من شرب النبيذ الذي يشجّعها على الكلام.

شربتْ وهي تنظر إليه بعيني لبؤة. اقترحت أن يشربا رشفة نخب الصداقة أولًا، ورشفة نخب الوفاء ثانيًا، وثالثًا رشفة نخب الأيام الجميلة التي مضت، ويا ليتها تعود.

جاراها وشرب معها رشفة بعد رشفة، دون أن يقرأ ما وراء ذلك.

لم يتكلم كثيرًا، ولم يلتقط هذا البهاء الذي أحاطته به في الجلسة، فشربت ما تبقى في كأسها، وأزاحت الكرسي قليلًا من تحتها، وبرقت عيناها، واتخذت وضع لبؤة تتهيأ للانقضاض، وقالت بعنفوان:

من دون لف أو دوران، أشتهيك.

عرته هِزّة وحيويّة كأنّ كل مشاعره تفتحت دفعة واحدة، فمد يده وصافح قلبها.

أكملت كلامها بمنتهى الرقّة:

أشتهي أن يضمّنا بيت واحد. أشتهي أن يضمّنا سرير واحد.

ظلّ ممسكًا بنبضات رسغها.

وأكملت: اسمعني جيدًا. سئمت من الغربة. سئمت من رتابة المدن. سئمت من كوني لاجئة. مدن هذا العالم مدن بلا قلب.

ظلّ يصغي، ومع ذلك أكملت: أصغ إليّ جيدًا. أحنّ إلى العودة إلى وطن يخصّنا؛ ليت الظروف مناسبة ..إذا لعدنا الى الصومال، أو إلى فلسطين.

ربت على يدها، وقال: لكن في الصومال حرب أهلية، حرب الإخوة الأعداء.

أجابت: في فلسطين احتلال، يقتل الأطفال.

ابتسم: لكن رغم الاحتلال، الناس تعيش، والحياة لا تتوقف.

قالت: لا أريد أن أذهب الى مكان يُقتل فيه الأطفال.

وأكملت: دعنا نفكر، أحنّ إلى بيت يطلّ على التلال، بيت ريفي حوله حديقة واسعة أزرعها بالورد والياسمين، ونطلّ عليها من الشرفة والنوافذ. أريد أن أعود سيدة بيت، وأنجب لك أطفالًا، وأمسح على شعرك وأنت ترسم . ابتسم وسألها: وأين سنجد مثل هذا المكان؟

أجابت : هناك في جبال الألب، في قرية زراعية سكّانها بسطاء وتخلو من شوائب المدن والعواصم.

وأضافت: نفعل مثل الشاعر جون بيرغر الذي هجر لندن وذهب الى جبال الألب، ويعيش الآن مع زوجته في قرية خالية من الشوائب مع أناس بسطاء لم تلوّثهم الحضارة الزائفة.

راقت له هذه الرومانسية التي جعلت عينيها تطلقان بريقا، فسألها:

ومن قال لك هذه المعلومة؟

أجابت : التقيت الشاعر نفسه منذ شهور في مهرجان تضامني لبلدكم فلسطين عقد في برلين. مهرجان حركة المقاطعة الدولية لإسرائيل والتصدي لأفعالها في الاستيطان والتمييز العنصري. حركة اسمها المختصر BDS، وشارك في المهرجان نجوم سينما وشخصيات بارزة تعنى بحقوق الإنسان، وعدد من الحائزين على جوائز نوبل .

هزّ رأسه، وقال: أعرف شيئا عن هذه الحركة، فقد نجحت في إقناع الناس هنا بمقاطعة بضائع المستوطنات.

أكملت حديثها: فتنني هذا الشاعر والفيلسوف جون بيرغر بحديثه عن اختياره العودة الى الطبيعة وهجر المدن الكبرى وضجيجها وتلوثها وفساد مجتمعاتها. وفتنني حديثه عن اعلاء شأن القيم والتضامن مع الشعب المظلوم الواقع تحت الاحتلال، وانخراطه في حركة المقاطعة الدولية للاحتلال BDS.

شـربت مـن جديد نخب حلم فـي بيت على التـلال في أحضان الجبل، حلم قد يتحقق.

كانــت تلك الليلة الحاســمة التي بســطت لك فيهـا صوفي قطعة الشـوكولاتة حبل الود مـن جديد، وأعادت الميـاه الى جدول حياة أصابه الجفاف.

الفصل الحادي والعشرون

أغلق أحمد الحاسوب، وهيّأ نفسه للنوم، كان قد أفرغ شحنة شجن من خلال الكتابة.

كان عليه أن يستيقظ باكرًا، فتناول هاتفه الخلوي ليضبط وقت الاستيقاظ. رأى مكالمة لم يُرد عليها، إذ كان الهاتف على وضعية الصامت. كانت المكالمة من نرمين.

نظر إلى ساعته، كان عقرب الساعة يشير إلى الحادية عشرة ليلًا. تردد قليلًا قبل أن يتصل، ورنّ هاتفها رنّة واحدة، فجاءه صوتها وعرف أنها لا تزال مستيقظة.

قالت إنها أحبت أن تطمئن عليه، وتشكره على حضور حفلة عيد ميلادها، وإنّها تحتفظ له بالود. واقترحت أن يزورها في مكتبها صباح الغد، فثمّة ما يتعيّن أن يقال، فاعتذر وأخبرها أنّ أبو الخير ظهر، وأنّه سيذهب معه في صباح الغد لزيارة الأرض، فصمتت قليلًا، ثمّ أبدت رغبتها في مرافقته، إذا كان ذلك ممكنًا.

لـم يمانع، وقال لها إنّه لا يمانع أيضًا من مجيء الصبيّة هياتارو، إذا رغبت.

* * *

في الصباح الباكر، انطلقت سيارة (اللاندروفر)، وسلكت طرقًا جانبية من ريف رام الله وصولًا إلى شارع نابلس، حيث سلكت الطريق السريع. كانوا أربعة يلبسون ملابس وأحذية رياضية، فقد جاءت هياتارو مع نرمين، وكان مثلهما يلبس ملابس وحذاءً رياضيًّا، وطوال الطريق ظلت هياتارو تثرثر.

عند حاجز (زعترة) اللعين، كان الازدحام مزعجًا؛ فجنود الاحتلال يفتشون السيارات والهويّات على الجانبين، بينما مستوطنو (أريئيل) يتجمّعون بانتظار الحافلة.

كانت هياتارو تصورهم من المقعد الخلفي خلسة.

قالت لها نرمين: حذارِ. توقفي، فإذا رأوك تصورين، سيعتقلونك ويعتقلوننا معك.

أعادت الكاميرا إلى حقيبتها حين اقتربوا من الجنود، وبعد التفتيش الدقيق، سمح لهم بمواصلة السير. وعندما اقتربوا من حاجز (حوّارة)، كان هناك ازدحام أشد.

قال أبو الخير: يبحثون عمّن طعن جنديًّا ليلة أمس.

واصلت هياتارو التصوير خلسة، فنهرتها نرمين من جديد.

عبروا الحاجز بشق الأنفس، وبعدها انفتحت الطريق أمامهم إلى وادي الباذان.

أطلت الجبال والأحراش عندما اقتربوا من الوادي. منظر الطبيعة ساحر، وشلالات الماء تسّاقط من علٍ، ولا تتوقف.

أوقف أبو الخير السيارة أمام أحد المطاعم المنتشرة على طول الطريق. دخلوا إلى الساحة المكشوفة: كراسي وطاولات وشلال ينهمر ويتدفق.

أخرجت هياتاروا الكاميرا. صوّرت الشلال، وصورت نرمين وأحمد وهما يحتسيان القهوة، وذكّرته بمسابقة الهدايا المسروقة، فنهرتها نرمين ووصفتها بطويلة اللسان.

غاب أبو الخير عن المشهد قليلًا، ثمّ دعاهم إلى الصالة المغلقة حيث مائدة الإفطار.

* * *

كانت لمسة لطيفة من أبو الخير، فتناولوا فطورهم، على الرغم من أنّ نرمين كانت قد أعدت بعض الشطائر و(تيرموس) قهوة، فقد ظلّت تحتفظ بها لوقت لاحق.

بعد هذه الاستراحة، انطلقت بهم المركبة نحو الطرق الوعرة غير المعبّدة. سلكوا طرقًا لا يسلكها سوى الرعاة وأغنامهم. كانت المركبة تسير على مهل وهي تترنح فوق الحُفر والحجارة، وكانوا يهتزون مثل الحبوب في الغربال.

وعلى الرغم من أنّ نرمين أصابها الغثيان، فإنّها تحاملت على نفسها، بينما ظلّت العفريتة اليابانية تحاول عبثًا التقاط الصور للحجارة الضخمة على جانبي الطريق، التي نحتتها الرياح على مدى العصور، وصنعت منها أشكالًا فنية يعجز أكبر النحاتين عن الإتيان بمثلها.

كان من الصعوبة بمكان تثبيت الكاميرا والتقاط الصور؛ فقد ظلت المركبة تهتز، فيميلون بعضهم على بعض، ولعلّ أبو الخير لاحظ ذلك من خلال المرآة، فتوقف عند أول مكان منبسط، وقال: تستطيعين أن تنزلي وتلتقطي ما تشائين من صور.

وعندما نزلت هياتارو، كان الدوار قد بلغ أشده، فنزلت نرمين وقد اصفرّ وجهها، وأفرغت على جانب الطريق كل ما في أمعائها.

فتح أحمد باب المركبة ونزل على عجل، وكذلك نزل أبو الخير، واصطحب معه زمزمية الماء التي لا تفارقه.

اكتفت هياتارو التي ابتعدت قليلًا ببعض اللقطات وعادت مسرعة.

تناول أحمد الزمزمية، وانحنى وصبّ لها الماء، فملأت حفنتيها وغسلت وجهها. وأخرجت الصبيّة مناديل ورق لتجفف البلل.

توقفوا بانتظار تحسّن نرمين وشد أزرها. كان وجهها شاحبًا.

أمسك أحمد يدها ليمنحها هذه المرة دفء روحه ومحبته.

بعد قليل راق وجهها، فقالت إنّها تشعر بتحسن.

ساعدها في الصعود إلى المركبة، وأغلق الباب، فيما صعدت هياتارو من الجانب الآخر، ومن جديد سارت المركبة، وحرص أبو الخير على قيادة هادئة، وقال: هناك طريق معبّد قريب يفضي إلى مستوطنة، ولكنّه ممنوع علينا.

لم يعلّق أحد، وحتى هياتارو توقفت عن الثرثرة.

وفيما تبقى من مسافة الوصول، كان في داخل أحمد مونولوج داخلي: هل ما قاله أبو الخير واقع أم أنّه من نسج الخيال؟ وهل للأرض قرين كما يقال؟ وهل من يُسمى جؤذر هو قرينها؟ وهل هذه الأرض اليباب التي ظلت عقودًا طويلة عجفاء، يمكن لشدة تعبها أن تزلزل زلزالها، وتتجدد وتنشر أسرارها؟! وهل تنام في باطنها بذرة، وتزهر على غصن شجرتها برعمة، وبين صخورها زهرة، وعلى ترابها تحبو خنفساء؟!

وفجـأة، توقفت المركبـة. وفتح أبو الخير ونـزل، وقال: نتوقف هنـا. ويتعيـن أن نكمـل الطريق مشـيًا، نصعد هذه التلـة ونصل إلى الأرض. يعني فركة كعب.

مشـوا وراءه، وكانت أحذيتهم الرياضية عونًا لهم، مشوا دون أن يتذمروا، وحين صار المرتفع حادًّا، أمسك أحمد يد نرمين وساعدها على الصعود، أما هياتارو، فقد سبقتهم جميعًا في الصعود، وتسلّقت التلة كالمعزاة.

وصلت قبلهم وانكشف المشهد أمامها، تأملت المشهد السهلي، ولشـدة سـحره، هتفت بصوت عـالٍ: واو. واو. وقفـزت في الهواء قفزة عالية لشدة الفرح: تعالوا. شوفوا هذه الجنة الفسيحة!

ووصل بعدها أبو الخير الذي تأخّر ليساعد من يحتاج لمساعدة، وعندها، مدّ يده لنرمين وسحبها لآخر التلة، وكان أحمد وراءها.

وقفـا -أحمـد ونرميـن- يلتقطـان أنفاسـهما، وقـد سـحرهما المشهد. وكانا بحاجة لوقت حتى يستوعبا السحر كلّه.

يـا لهذا السـهل المفروش بالخضرة وكأنه بسـاط نسـجه الإنس والجان!

سـهل يطل على بسـاتين الرب، علـى التلال والوديـان والغيوم والأحراش والطيور وزهور الحنّون والخبيزة وقرن الغزال!

جثت نرمين على ركبتيها، وتركت عينيها، عيني الغزالة، ترعيان في هذه الطبيعة البكر التي تسعد القلب وتهز الوجدان.

انشغلت هياتارو بالتصوير الفوتوغرافي والفيديو، فيما رجع أبو الخير للمركبة، ليجلب حقيبة نرمين وأشياءه الأخرى.

اقتربت نرمين، وأمسكت يده، كانت مسحورة بالمكان حتى الذهول، أمسكت يده وقالت: لا تتركني. أحتاجك.

قالتها في لحظة بوح يشهد عليها جمال المكان.

ودّ لحظتها لو واتته الشجاعة واحتضنها، وأسند رأسها إلى صدره، لكنّه اكتفى بضغطة حنونة على يدها.

عاد أبو الخير يحمل الحقيبة، وبعض الأكياس. وقال: بعد هذه الاستراحة، هيّا نتجول في هذه القرية.

نظرت نرمين إلى أحمد كما لو أنّها تتساءل: ماذا يعني بالقرية؟

مشى، ومشيا إلى جانبه، وانضمت إليهما هياتارو.

قادهم في البداية إلى مبانٍ صغيرة من الحجارة، مبنية على شكل مخروطي، وقال: هذه بيوت قديمة موجودة في السهول الزراعية في عموم الوطن لا تعرفها الأجيال الجديدة، اسمها المناطير، وواحدها المنطار، أي المكان المرتفع المشرف، هو بيت للرعاة والحرّاثين وصغار المزارعين.

وأضـاف: انظـروا. مبنـي من الحجـارة غير المنحوتـة، لا حجر يشـبه حجرًا. لا طين ولا إسـمنت. هو بيت صغير يتسـع لمؤونتهم ونومهـم، ويقيهـم حرّ الصيـف، وبرد الشـتاء. يجفّفون فيـه الباميا والطماطم والتين. يشـكّلونها على شـكل قلائـد، ويتركونها تجف على مهل.

اقتربوا من مدخله؛ باب مكشوف ضيّق، وألقوا نظرة.

كانت هناك حقائب صغيرة، من النوع الذي يعلّقه الشـباب على ظهورهم.

- هذه المناطير تراث شعبي، وفن تتوارثه الأجيال.

قال أبو الخير، وأضاف:

والآن ننتقـل إلى الجزء الذي حرثناه وزرعنا فيه شـتلات الخس والبنـدورة والخيـار والنعنـع والبصـل. سـاروا خلفـه، ومـن وراء السنسلة، ظهر البساط الأخضر.

فوجـئ أحمـد، وذهل. أحقًّا هذه أرضه التـي كانت جافّة ومهانة وجدباء؟!

يـا لروعة الخضرة! يـا لروعـة الأرض التي ترتدي هذا الكسـاء الأخضر!

ومرة أخرى، مدت له نرمين اليد الدافئة.

جاءت هياتارو. اكتفت بما التقطته من صور هناك، والتقطت صورة هنا؛ صورة لنرمين وأحمد. ظلت نرمين ممسكة بيده دون أن تشعر بالحرج.

قال أبو الخير: أترككم هنا، ويتعيّن عليّ أن أذهب إلى المتطوعين الشباب الذين يعملون في مكان قصي.

وتوقف لحظة: إنّهم هناك وراء هذه التلة، عند مقبرة الأرقام، لإبعاد المياه العادمة عن المقبرة.

تشبّثت هياتارو بملابسه، وقالت بانفعال: أرجوك، خذني معك.

نظر إليها أبو الخير، وكأنّه يشاور نفسه: المكان بعيد نوعًا ما، والطريق شاقّ، فأجابت بلا تردد: لا تقلق، المشي هوايتي الممتعة.

الفصل الثاني والعشرون

ذهب أبو الخير مع حمله الثقيل، ومعه هياتارو. حمل كيسًا فيه المؤونة، حمله بجسد متين، وقوّة خارقة. قال إنّه سيعود بعد ساعتين، وإذا جعتم، فستجدون في المنطار خبزًا، وستجدون ما تأكلون من الخضار الطازج أمامكم.

قبل أن تبتعد، التفتتْ هياتارو، ولوّحت لهما، وهي تبتسم ابتسامة واسعة، كما لو أنّها تعبّر عن سعادتها.

وبعد أن اختفيا عن الأنظار، قالت له وهي تشبك ذراعها بذراعه:

هيّا نتمشى بين مسارب المزروعات.

كان الخضار يمتد على مد النظر، وكان مسكونًا بفرح ليس له مثيل، وهي فَرِحة لفرحه.

وفي الطريق وسط هذه السجّادة الخضراء، كانت بين فينة وأخرى تلتصق بكتفه، وتقول إنّها تشعر بسعادة لم يسبق أن شعرت بها من قبل.

كان يشعر بدفء روحها هذه المرة، مثلما كان يشعر بيدها الدافئة. مشيا طويلًا وهما يتحدثان عن أبو الخير وما طرأ من تغيّر على شخصيّته، وكيف خرج من شخصية السائق والمرافق المطيع، إلى شخص آخر، وشخصيّة أخرى.

لعلّه عرف طريقه عندما تعرّف على الشبيبة وانخرط معهم في المقاومة الشعبية ضد الجدار والاستيطان.

لكن لماذا اختلق قصة جؤذر؟

قالت: لعلّه سمعك تتحدث عن سمعان وصوفي أمام أصدقائك، أو لعلّه قرأها في كتاب ألف ليلة وليلة، أو سمعها في المقاهي الشعبية.

كان الجو دافئًا نوعًا ما، لكن كان نسيم رقيق يطلق رقّته فوق البستان والتلال ويتلاعب بشعر نرمين التي استعادت حيويتها بعد وعكتها العابرة.

بدأ أحمد يلقي نظرة على التلال، واستغرق في التأمّل، فسألته عمّا يلفت نظره.

كان ينقّل بصره عن بعد، لعلّه يلمح تلك الشجرة الرومية التي زعم أبو الخير أنّها فتحت فجوة، ودخل جؤذر لينام في حضنها، لكنّ الأشجار الكبيرة والباسقة كانت كثيرة.

قالت إنه من الصعب تصديق ذلك. لا يحدث ذلك إلا في حكايات الجدات عن الشاطر حسن.

أجابها أنّه في حيرة، وأن مخيّلته في حيرة، فهل تَزامُن حكاية سمعان عن جؤذر، وحكاية أبو الخير عن الاسم نفسه توارد خواطر، أي نوع مما يسميه علم النفس Telepathy؟

قالت له: لا تتعب نفسك. لتبق القصة غامضة كحكايات الجدّات. كانت تلك الخراريف في صغرنا تغذي خيالنا، كنا نحب هذه الخراريف، وتُمْتعنا الخوارق، ولا نسأل.

تعبا من المشي، وأحمد يتحدث في كل شيء ما عدا عواطفه وأشواقه الداخلية.

صحيح أنّها تشبك ذراعها بذراعه، وهذا يسعدها، إلا أنها كانت تتمنى لو عبّر لها عن حبّه بالكلام.

مرّ الوقت دون أن يشعرا بمروره. نظر إلى ساعته، وقال: حان موعد عودتهما.

كان يعني أبو الخير وهياتارو، فاقترح عليها أن يعودا إلى المنطار.

أجابته بالموافقة، وقالت: فكرة طيبة، وتكون فرصة لنحتسي القهوة.

وأمـام المنطار، فرشــت نرمين بطانيــة تربّعا عليهـا، وأخرجت مـن حقيبتهـا (تيرمـوس) القهـوة والفناجيـن، وصبــت لــه فنجانًا، وفنجانًا لها.

تنبّهت إلى أنّه لم يشعل سيجارة منذ بداية الرحلة.

وقبل أن تسـأله عن ذلك، بدا أبـو الخير من بعيد ومعه واحد من مجموعـة شـباب طلبة الجامعـة وواحدة من الصبايـا، ومن خلفهم بدت أيضا هياتارو.

* * *

كانت هياتارو تضع على وجهها كمّامة، وكانت عيناها محتقنتين بالدمـوع. لم تنضم لهـم، وإنما ذهبت بعيـدًا، وعندما وقفت نرمين والتحقت بها، أجهشت بالبكاء.

علّـق أبـو الخيـر قائـلًا: هـي مصدومـة مما شـاهدته فـي مقبرة الأرقام.

ثمّ استدار، وعرّف مرافقيْه:

خالد ممثل الطلبة المتطوعين، وزميلته المهندسة فردوس.

واقتــرح أن تكـون الجلسـة داخـل المنطـار لتكـون هنـاك خصوصية.

* * *

سحبت نرمين الكمّامة عن فمها، وحضنتها وطبطبت على كتفها، وبذلت جهدًا من أجل تهدئتها.

لم تسألها عمّا يبكيها، فقد قدّرت أنّ مشهد المقبرة قد أوجعها.

توقّفت هياتارو عن البكاء، وقالت لنرمين: دعيني وحدي.

ابتعدت نرمين عنها قليلًا، وجلست على صخرة صغيرة، وصارت تلقي نظرة على الجبل تارة، وتلقي نظرة إلى حيث جلست هياتارو وافترشت الأرض تارة أخرى.

قدم أبو الخير رفيقيه وعرفهما، وقال إنّهما من جامعة النجاح، وسمّاهما. وأضاف: إنهما يرغبان في التعرف عليك، وطرح أفكارهما عليك كناشطين في حركة مقاومة الاستيطان.

انتهى الاجتماع بعد ساعة.

ظلّت نرمين تلقي نظرة هنا ونظرة هناك، وتكابد وجعًا، وتتعاطف مع هياتارو.

خرج أحمد وملامحه تشي بابتهاج. وانشغل أبو الخير ورفيقاه بإعداد وجبة غداء.

مشى أحمد نحوها، وقرأت نرمين في وجهه راحة وسكينة.

قال بما يشبه الاعتذار: تأخرت عليكِ؟

ابتسمت ابتسامة ما، دون أن ترد على سؤاله.

لاحظ أنها مشوشــة، وملامحها تدل على ذلك. حاولت أن تبدو طبيعية، لكنها ظلت مرتبكة. خطر له أنّها منزعجة بسبب غيابه عنها، لكنــه لاحظ أنها تنظر إلى هياتارو ولا تنظــر إليه. كانت الصبية على مقربة منهما تكابد حزنها. فسألها إن كان الأمر خلافًا حدث بينهما، فأجابته أنها مصدومة مما رأته في مقبرة الأرقام.

مشــى ومشــت معه نحو الصبيّة، فحــاول أن يهدّئها، لكنّها ظلت مكتئبة.

في تلك اللحظة، جاء صوت أبو الخير: الغداء جاهز. تفضلوا.

قال أحمد: يتعيّن علينا أن نجاملهم.

أجابت نرمين: ســأبقى مع هياتارو. اذهــب أنت ولا تقلق علينا، فقد أحضرت معي شطائر تفي بالغرض.

لم يكن يشعر بالجوع، لكنّه لا يستطيع الاعتذار، ويتعيّن عليه أن يشاركهم الزاد.

يــا لهذا الــزاد المتقشــف: خبز وطماطــم وبصل أخضــر وبيض مسلوق!

الفصل الثالث والعشرون

أكتب إليك يا سمعان في هذا الوقت المتأخر بعد يوم طويل.

هناك حيث بساتين الرب، وجباله، وينابيعه، وطيوره، وأشجاره، وثماره.. روح وريحان وجنّة نعيم.

هناك حيث ولدت الأساطير والحكايا، وعبرت الحضارات، وكتبت الحكمة بماء الذهب على ألواح الطين، وصحائف الآجُرّ.

هناك حيث عبر غزاة، وعبر حاملو قناديل التنوير والمحبة.

هناك حيث تلاقحت الحضارات الكنعانية وحضارات الرافدين والفارسية والمصرية الفرعونية والإغريقية والرومانية والإسلامية من أموية وعبّاسية وفاطمية ومملوكية وأيّوبية.

هناك دخلت مملكة جؤذر الذي أحييتَه بعد ممات، أحييتَه أو أحياه أحد المقربين منّي، فصار ملك الجبال والتلال والسهول والينابيع والأحراش وأشجار التفاح والرمان والتين والزيتون.

كنت يا صديقي هناك، ومعي صاحبة اليد الدافئة التي سكنت قلبي.

أحببتها كما أحببتَ صوفي، حبًّا مختلفًا، فقد دخلت في النصف الثاني من العمر مرحلة الحكمة والتأمّل، تستطيع أن تقول إنّه حب صوفيّ، فالحب يضيء قلبك، ويحوّل الرغبة إلى عشق، فحينما كانت إلى جانبي، كنت أشعر أنني أصعد إلى أعلى، وهي تصعد معي إلى فسحة نشوة الروح.

هناك التقيت بالشبيبة حرّاس التلال، وحرّاس حدائق الفكرة، وبساتين الأحلام. أحيوا الأرض ومهّدوها وحرثوها وزرعوها، فصارت مثل بساط أخضر منسوج بأيدي نسّاجين يشتغلون على النول في عسقلان.

عرضوا عليّ تحويل الأرض الشاسعة إلى قرية لمواجهة زحف وتمدد المستوطنة المجاورة.

عرضوا عليّ التصميم الذي وضعوه لبنائها، وأجريت عليه بعض التعديلات، فخصصت لك مرسمًا، وخصصت لأصدقائي المتقاعدين استراحة، ولي ولابنتي ياسمين بيتًا ريفيًّا مشتركًا.

ها قد صار لك مكان، صار لك بيت على التلال إذا شئت،أو عندما تشاء.

هنا سيلتقي علي بابا وجؤذر اللذان اخترعتهما، وينتظرك أن تحوّل خيالك الخصب إلى رسوم تتفوّق فيها على الواسطي،

وهكـذا تصنع أسـطورة تضاف إلى الأسـاطير التي صنعها الإنسـان على مر القرون.

أنـت لا تعلم يـا صديقي أنني ورثـت هذه الأرض عـن والدي. عندمـا عدت إلـى الوطن بعد اتفاق أوسـلو، كانت منطقة عسـكرية مغلقة للجيش الإسـرائيلي، ومنطقة استيطان، وتسنى لي أن أزورها مـن خلال طـرق جانبية غيـر معبّدة عدة مـرات، دون المـرور على الحاجز اللعين.

ظلـت المنطقـة مصنّفـة منطقـة عسـكرية حتـى انتهـوا مـن بناء المسـتوطنة على الجهة المقابلة من الأرض التـي أملكها، وأنجزوا الطريـق الالتفافـي المؤدي إليهـا، عندها نقلوا الحاجـز إلى مدخل المسـتوطنة، وصـار بالإمـكان الوصـول إلـى الأرض عبـر طـرق غير معبّدة.

عليك أن تعرف أنّ سائقي ومرافقي واسمه أبو الخير هو الأيقونة، هو الساحر الذي أيقظ الأرض من سباتها، ورفعها إلى المكان الذي تستحق. هو الذي اكتشف رونقها وبهاءها. هو الذي مدّ يده وصافح قلبها. هو الذي كشف أسرارها، وصنع خياله منها أسطورة، واخترع لهـا قرينًا سـمّاه جؤذر، جؤذر الذي خرج مـن حكاية علي بابا الذي يتدثّر في عباءتك، ويتعمم بعمامتك.

لـم أعـرف إن كان ذلـك حقيقـة أم نسـج خيـال، وفـي البدايـة، كنت متشـوقًا أن أعـرف، لكن اليد الدافئة أقنعتني، واسـمها نرمين، وسـتتعرف عليهـا عندمـا تعـود للوطـن بجـواز سـفرك الألمانـي، وسـتحبّها صوفي كثيـرًا، أقنعتني أن تبقى الأسـطورة غامضة، نترك الخيال ينسج ما يشاء، ونستمتع بالخرافة والدهشة.

حان لك أن تعود يا صديقي، ومعك صوفي قطعة الشـوكولاتة، طال الزمان أم قصر.

حان لك أن تطأ قدماك هذا التراب الذي نبتت من أحشائه أشجار الحنين، وأن تلبي نداء الأرض التي تقول: البلاد طلبت أهلها.

حـان لك أن تعـود إلى مملكة جـؤذر، ذلك الـ(يوليسـيز) الذي عاد من بحور الظلمات إلى نور شمس وطنه، فهذه البلاد هي وطننا الذي لا وطن لنا سواه.

الفصل الرابع والعشرون

ما قالته نرمين لأحمد عمّا روته هياتارو:

لا تتخيلي يا نرمين كم سحرني المشهد في ذلك اليوم. السهول والجبال والتلال والأشجار، والأراضي المزروعة، وذلك البناء المخروطي من الأحجار الذي بناه الفلاحون ويعجز أمهر المهندسين عن الإتيان بمثله.

كنت مفتونة مثلك ومثل أحمد، وكنت أشعر بالدفء الإنساني الذي كنتما تشعران به.

ويومها فرحت لفرحكما، وقلت في نفسي: كم أنتما لائقان ببعضكما.

وكذلك أدهشني ذلك الرجل الذي تسمونه أبو الخير، رجل متين البنية يمتلك إرادة عزّ نظيرها، وسيكون لهذا الشاب مستقبل باهر.

مشيت معه من أجل الالتقاء بالشباب والصبايا الذين يحبون وطنهم، ولألقي نظرة على مقبرة الأرقام التي ابتدعتها دولة إسرائيل،

حيث تدفن جثث الفدائيين الذين قتلوا في المواجهات في مقابر سرية، وتعطي لكل واحد منهم رقمًا لتساوم عليهم، تدفنهم على سطح الأرض دون أية معايير، وتكتفي بتغطيتهم بالتراب.

كان أبو الخير يغذّ السير في الطرق والمسارب غير الممهدة وهو يحمل أثقاله، وعندما يتنبّه إلى أنني أتخلف عنه ينتظرني.

المهم، وصلنا إلى المكان المقصود، كان الشباب والصبايا منهمكين في العمل، بعضهم يحفر بالفؤوس، وبعضهم يرفع التراب، أو يجر عربات اليد لنقل التراب، أو رفع الحجارة، كانوا -كما بدا لي- يعملون على تحويل مجرى المياه العادمة الآتية من المستوطنة.

كانوا جميعًا يضعون الكمّامات على أنوفهم، وعندما اقتربت، كانت الرائحة مروّعة ومرعبة، كانت نتنة لدرجة لا تطاق.

عندها أحسست بالغثيان، وأفرغت كل ما في جوفي.

خفّت إليّ بعض الصبايا، وغسلن وجهي بزجاجة ماء صالحة للشرب، ثمّ وضعن على أنفي كمّامة. الكمامة خففت من الرائحة قليلًا، وكان عليّ أيضًا أن أعتاد عليها كما اعتاد أبناء الشبيبة.

كانوا قد أقاموا حاجزًا يوقف تدفق المياه العادمة لمنع وصولها إلى مقبرة الأرقام.

شاهدت على الجانبين جثثًا لطيور ملوّنة كبيرة الحجم، لعلّها طيور مهاجرة. كانوا قد جمعوها لدفنها أو إحراقها.

قدّمني أبو الخير إليهم، فرحبوا بي. كانوا قد اعتادوا وجود متضامنين أجانب بينهم.

رحّبوا، وعادوا إلى أعمالهم.

بدأ أبو الخير يشرح لي:

المياه العادمة التي تجري في الوادي غيّرت مجراها وفاضت وغمرت مقبرة الأرقام. جرفت العظام وطرحتها جانبًا، جماجم وعظام أقفاص صدور وعظام أعمدة فقرية وعظام أرجل وأيدٍ وأحواض، ملقاة هنا وهناك.

وبعض العظام التقطتها الوحوش الضارية، لكنّ من حاول تفتيتها وأكلها، أصابه التسمم ومات، وتحوّل إلى جيفة وهيكل عظمي.

جمعنا عظام الشهداء، وسننقلها في وقت لاحق إلى السهل، وسندفنها في قبر جماعي يليق بها، ونضع بجانبها نصبًا تذكاريًّا.

ثمّ أشار إلى كومة الطيور الميتة، وقال: تلك الطيور الملونة ذات السيقان الطويلة والريش الجميل، والمناقير البارزة، هي طيور مهاجرة، تأتي في مثل هذا الموسم إلى بلادنا الدافئة لتتزاوج وتبني

الأعشــاش لفراخهــا، وعندما تكبر هــذه الفراخ، تطير مـع الآباء في السرب الذي يعود إلى بلاده وأوطانه.

هذه الطيور ضحية المياه العادمة، كل طائر قادم من رحلة طيران طويلة، وأمضّه العطش، وحطّ على سـفح الـوادي واقترب وانحنى وشرب الماء، تسمم ونفق.

ثمّ قال: واحدة من إناث تلك الطيور لم تشرب الماء، وهي الآن في عشّـها الذي بنته على تلك الشـجرة (وأشار إلى واحدة من تلك الأشـجار التـي تعتلـي الجبل) تحتضـن زغب فراخها التي فقّسـت حديثًا، ونحن نرعاها ونوفر لها الماء الصالح والطعام المناسب.

ومن حســن حظها أنهـا لا تبتعد عن العشّ، وبالنسـبة لنـا، فإنّها ترمز إلى الحياة في مواجهة الموت.

ثـمّ تركنـي أبـو الخيـر، وذهـب ليندمـج فـي الحديث مـع قادة الشبيبة.

بعـد ذهابه، جلسـت على الأرض أتأمّل المشـهد بينمـا الرائحة الكريهة تزكم أنفي.

ما أروع هؤلاء الشـباب من الجنسين! يلبسون القمصان البيضاء التـي عليهـا شـعار الشـبيبة والسـراويل الزرقـاء، ويضعـون علـى رؤوسـهم طواقي تحميهم من الحر والبرد، ويعملون بجد وحيوية،

وكم كان بودّي أن أرتدي ثيابهم وأنخرط في صفوفهم وأحمل فأسًا وأفعل شيئًا.

كما كان بودّي أن أتحدث إليهم، وأشمّ رائحة العرق الذي ينزّ من جباههم.

كنت أراقبهم، وأشاهد كومة العظام التي جمعوها، ونسّقوها على البطانيات، ومن الجهة الأخرى، كومة الطيور النافقة، ولا أدري لم خطر ببالي أن الجسد يموت لكن الأرواح لا تموت، وأنّ أرواح الشهداء ترفرف كما الطيور في هذا الفضاء الواسع.

ولا أدري أيضًا لم خطر ببالي أن أصعد إلى تلك التلّة المليئة بالأشجار، كي أبحث عن زغب الفراخ وأمّهم، كي أشاهد لأول مرة أرملة وصغارها. ما أصعب أن تترمل تلك الطيور في ديار الغربة! كيف تعود إلى وطنها؟ كيف تجد سربًا تنضم إليه مع أولادها؟ وهل تتحمل أجنحتها الغضة وأجسامها الواهنة الطيران آلاف الكيلومترات إلى بلاد الشمال؟ أم ستبقى ضيفة دائمة على هذه التلال وهذا الفضاء؟

في الحقيقة، سكنني حزن ورغبة في البكاء. مسّت جسدي رعشة مثل رعشة فرخ في العش، مثل رعشة طائر في لحظة احتضار، لكنّي لم أقوَ على البكاء.

بذلت جهدًا كي لا أبكي، بالأحرى خبأت بكاي في داخلي لأبكي عندما أختلي بنفسي.

لذلك، عندما عدت إليكم مع أبو الخير وأنا أضع الكمّامة التي تخفي احتقان وجهي، ذهبت بعيدًا وانفجرت في البكاء.

الفصل الخامس والعشرون

مشى أحمد في شارع الإرسال على غير هدى.

عادت إلى الذاكرة مقابر الأرقام. كان قد كتب سلسلة مقالات عن هذا الموضوع المنسيّ الذي لا يحظى بالاهتمام.

كان قد كتب عن جثامين شهداء معارك حدثت على امتداد جبهة المواجهة داخل الأرض المحتلة، واحتجزهم العدو، معارك قديمة انطلقت من قواعد الفدائيين في الأغوار.

ذكر منها معركتين: معركة عين البيضا في الجانب الفلسطيني من غور نهر الأردن، قريبًا من بيسان، التي استشهد فيها عدد كبير من الفدائيين، ومعركة الحزام الأخضر التي كان ميدانها جبهة تمتد حتى سبعة كيلومترات، واستهدفت المستوطنات الواقعة في عمق القاطع الشمالي للعمليات، وقد ارتقى فيها عدد كبير من الشهداء الذين لم يتم سحب جثامينهم.

المعركتان حدثتا بين العامين 1968 و1969، ورجّح في مقالاته أن شهداء هاتين المعركتين قد دفنوا في مقابر أرقام سريّة، وفي أمكنة لا تبعد عن ساحات تلك المعارك.

حدث نقاش حينها في هيئة المتقاعدين حول مقالاته، فقد قال أحدهم: إذا كان لا بد من الموت، فليمت المرء بين أهله وذويه.

وقال آخر: وليكن للمرء قبر يزوره الأهل والأحباب، ويضعون عليه باقات الزهور، أو أكاليل الورد. ولتكن فوقه شجرة تظلله، وتؤنس روحه زقزقة عصفور.

وقال ثالث: يا إخوان، المهم أنّ جثمانه مدفون في أرض الوطن، فكل شبر في وطننا مجبول بدماء الشهداء.

وردّ عليه آخر: مقابر الأرقام معتقلات. إنهم يسلبون كرامة رفات الإنسان.

وأكمل قائلًا: الثورة الجزائرية، بعد انتصارها، نقلت رفات الأمير عبد القادر من دمشق إلى الجزائر. للشعوب رموزها، والشهداء أيضًا رموزها.

وعلّق أحدهم: لماذا لم تنقل السلطة رفات أبو جهاد، وصلاح خلف، وأبو الهول، وبقية الرموز، من دول الشتات إلى أرض الوطن؟!

وانفتح الباب حينها على نقاش سياسي تحسّر فيه أولئك الرجال على ذلك الزمن الجميل.

* * *

حينها، ظلّ أحمد صامتًا أمام رفاق الدرب في هيئة المتقاعدين، لم يجرؤ على زيادة معاناتهم وشقائهم، لم يشأ أن يذكر أمامهم أنّ ذلك الرعيل الأول من الفدائيين روّض الأرض كما يروّض الفارس الفرس أو المهرة، روّضها واستأنسها عندما كان الزمن مديدًا والسقف السياسي عاليًا، وقامات الرجال فيها عملقة.

كانوا يتمتعون بإنكار الذات والتضحية، عاشوا في كهوف ونصبوا خيامهم بين الصخور، وكان شعارهم: هويتي بندقيتي.

أولئك ليسوا أرقامًا، لكل واحد منهم قصة، لكل واحد منهم قلب يخفق بالحنين، وينبض بالحب. لكل واحد أسرة، وزوجة أو حبيبة، لكل واحد أمّ وأب وإخوة وأخوات، وأخوال وخالات، وأبناء وبنات عم، وأصدقاء في المدرسة والجامعة والطريق والمقهى، لكل واحد منهم ذائقة لشعر المقاومة وشعر الحنين والأنين.

كل واحد منهم كان يتمنى الشهادة وأن ينال شرف الفداء في الميدان، وأن يحظى بجنازة لائقة وقبر في مقبرة الشهداء، وملصق نعي مع صورة، وكلمة رثاء صادقة من رفيق درب.

* * *

مقابر الأرقام: كآبة مشهد، وسوء منقلب.

مقابر الأرقام: تعذيب للروح، وغصّة في القلوب.

مقابر الأرقام: محرقة تحت لهب شمس الأغوار، وصقيع ينخر العظم في شتاء الجبال.

وعندما تمطر وتجري السيول تجرف العظام. تلقي بها على قارعة الدروب والمسارب، فتنوشها الذئاب والكلاب وبنات آوى. تقرقطها أنياب الوحوش الضارية.

يا لفظاعة التوحّش! يا لبشاعة الاحتلال!

* * *

مشى أحمد في الشوارع على غير هدى.

مشى مكتئبًا فقد اتسخت هذه الليلة. اتسخت واتسخ مزاجه.

وفكّر ماذا عليه هذه الليلة أن يفعل؟

ماذا يفعل الحزانى والمهمومون في ليلة نحس كهذه؟

ماذا بقي لهم سوى سيجارة وكأس، لكنّك أقلعت عن التدخين، ولم تكن في يوم من الأيام كحوليًّا!!

إلى أين ستقودك قدماك؟

من غيرك أيتها اليد الدافئة يمكن أن يلملم مزق الروح، ويجمع شعث النفس الحائرة؟

الفصل السادس والعشرون

طرق أحمد الباب بلطف، وكانت أصوات هرج في الداخل.

فُتح الباب وظهرت أمامه هياتارو. فوجئت عندما رأته، وأضاءت ملامحها ومضة، واندفعت إليه وحضنته بفرح، ثمّ فتحت الباب على سعته، ونادت بأعلى صوتها على نرمين.

دخل الصالة فخفّت نرمين إليه، وسلّمت عليه بالأحضان. ومن ورائها وقف خليل والخال أبو مجدي وزوجته، وسلّموا عليه جميعًا بالعناق، وأفردوا له مكانًا في الصدارة.

جلس كواحد من العائلة، وما كان له أن يتصل ويحدد موعدًا للزيارة.

رشقته نرمين بنظرات حنونة من عينيها المكحولتين، ورحّب به خليل بحرارة، وقال الخال أبو مجدي: «كنّا بسيرتك، والله إنّك ابن حلال». حتى زوجة الخال، التي تظل في العادة منكمشة، ابتسمت له، ومن البداية أحاطوه بجوّ حميم.

كان الخال قد جلب معه صينية كنافة، وكانت أمامهم لا تزال ساخنة ومغطّاة وإلى جانبها الصحون والملاعق، وبدا كما لو أنهم كانوا على وشك تناولها.

قامت نرمين بعد أن جلس أحمد واعتدل في جلسته، وأزاحت الغطاء، فبدت حلوى الكنافة المحلاّة بالقطر، وساعدتها هياتارو في وضع قطع الكنافة في الصحون.

قدّمت الصحن الأول لأحمد، مدت له الصحن بيدها التي تحيط بها سلسلة ناعمة، فرفع إليها عينيه المتعبتين، وبدا كما لو أنّها تمدّ له يدها الدافئة وتنتشله من بئر أحزانه.

وأثناء تناول حلوى الكنافة، أثار الخال أبو مجدي الصخب والفكاهة، وكان بين حين وآخر يخرج زجاجة الكونياك من جيب جاكيته الداخلية ويأخذ رشفة.

راق الجو، وراق مزاج أحمد، وظلّت هياتارو تتحرك بين الصالون والمطبخ، ترفع الصحون الفارغة، وتنظّف طاولة الوسط، ثمّ تحضّر القهوة.

لم تكن على طبيعتها وحيويتها، كانت تحاول أن تبدو متماسكة، لكنّ أحمد لاحظ شرودها وانشغالها.

حتى الخال لاحظ ذلك، ووجد الفرصة للتحرّش الظريف بها، فقال مخاطبًا أحمد:

- اليوم زحل في برج الصبية اليابانية هياتارو. انظر. لا تضحك، لا تثير المرح، لا تخترع حكاية، وفوق ذلك كلّه، ألغت الجائزة على هدية اللص الظريف.

وقهقه ضاحكًا وهو يبدي ظرفه وقال: رحت إلى الكوفي شوب في فندق هايد بارك وطلبت نسكافيه، وغافلت النادل ولطشت المنفضة الكريستال ودسستها في عبي، لكنّ هذه الشعنونة ألغت المسابقة.

وتعمدت هياتارو أن تفسح مكانها لتجلس نرمين على مقربة من أحمد، ما مكّنها من أن تحادثه في غمرة انشغال الآخرين بأحاديث جانبية.

قالت له: افتقدتك خلال اليومين الماضيين، ولم أشأ أن أزعجك بالاتصال.

أجابها بأنه مهموم ومنشغل بموضوع الشهداء في مقابر الأرقام، قال لها إنّهم منسيّون، غير مشمولين بموضوع المفاوضات، وغير مشمولين بقضايا تبادل الأسرى، وغير مشمولين بزيارة أهل، وغير مشمولين بمقاومة الاعتقال الإداري، فهم معتقلون إداريون للأبد. لا بد من التذكير بهم، ومعرفة أسمائهم، وإعادة دفنهم بشكل لائق يحترم كرامة الإنسان. يجب أن يكونوا قضية نعمل على إيجاد حل لها، تمامًا مثل اهتمامنا بقضايا الأسرى.

وتدخّل الخال فجأة، وقال بظرفه المعهود: يا أستاذ أحمد، ما بدنا نحوّل جلستنا إلى الحديث بالسياسة، السياسة تفسد السهرة.

امتعضت نرمين، لكنّها رسمت ابتسامة صفراء دون أن تتكلّم، ونظرت إلى أحمد، وقالت له: هيّا. ونظرت للخال والحضور وقالت: عن إذنكم، هناك موضوع عمل يتعيّن أن نتحدث به.

ارتبك أحمد قليلًا، لكنّه وقف، فقادته إلى التراس في الخارج.

بعد خروجهما، أخرج الخال من جيب الجاكيت زجاجة الكونياك وأخذ رشفة، وقال وهو يواصل الضحك والسخرية: ابنة أختي تفقد لطفها ورقّتها، وصارت تسترجل علينا، صارت مثل (أبلة حكمت).

* * *

ثمّة هواء لطيف يرسل نسماته.

ثمّة خصلة شعر على جبين نرمين يتلاعب بها الهواء الخفيف، فترفع يدها الدافئة وتسوّيها.

كان السطح يطلّ على البيوت المضاءة والتلال البعيدة حيث البيوت الأقل إضاءة.

قال لها: كيف تصرفت على هذا النحو؟

ضحكت، وأجابت: لا تقلق. الخال الآن نصف سكران، ثمّ إنّه تعوّد علينا وتعوّدنا عليه.

هزّ رأسه، فواصلت الكلام: منذ يومين وأنا في حيرة، أنت غائب، وهياتارو منغلقة ولم تعد كما كانت ضوء البيت.

ردّ قائلًا: أحيانًا، يمر المرء بحالات اكتئاب أو انطواء؛ لأننا لا نعيش حالة طبيعية ومستقرة.

أجابته مع ابتسامة لطيفة: منذ أن أقلعت عن التدخين صرت عصبيًّا. ولم لا تكون مناسبة من أجل نقاء رئتيك، والمزيد من جمال روحك ودفء مشاعرك؟

وأضافت: وفكّر في مشروعك بإقامة قرية على التلال هناك، عند بساتين الرب كما تقول.

كانا يقفان ويتكئان على السور. ينظران إلى بعضهما البعض حينًا، وينظران إلى البعيد أحيانًا أخرى.

صمت قليلًا قبل أن يقول: عدلت عن فكرة القرية الآن.. سندفن فيها عظام الشهداء ونحوّلها إلى متنزّه طبيعي.

كانوا في الداخل يواصلون الهرج والمرج، والخال يغنّي لعبد الوهّاب: إمتى الزمان يسمح يا جميل، وهم يصفّقون بمرح، حتى هياتارو تنسى أحزانها وتصفّق معهم.

قالت نرمين: افعل ما يرضيك، كل ما أريده أن تعود كما كنت.

أمسك يدها، ورفعها إلى فمه وقبّلها، وقال: هيّا ندخل.

الفصل السابع والعشرون

اتصلت نرمين وكان صوتها مهزوزًا:

هياتارو غابت منذ أسبوع ولمّا تعد بعد.

لم تخبرني، ولم تخبر خليل، ولم تتصل بنا، وجوّالها مغلق.

قالت وقد بلغ منها القلق مبلغه.

حاول طمأنتها، وقال إنّه سيبذل جهده، وربما تكون مع الشبيبة، ولعل أبو الخير عنده معلومة عنها.

وقال إنّه سيبلغها حالما يعرف شيئًا.

بعد أن أغلق الهاتف، اتصل على الفور بأبو الخير، فجاءه الجواب من البريد الآلي أنّ هاتف مخاطبه مغلق.

وقع في حيرة، وقال لنفسه: وحده أبو الخير يمكن أن يعرف مكانها.

ما العمل؟ ظل يتساءل بينه وبين نفسه.

مشى في الصالة، وخرج إلى الشرفة.

خطـرت في خلده فكرة، فدخل غرفته، واسـتبدل بملابس النوم ملابسَ الخروج، لبس بنطالًا خفيفًا وقميصًا وجاكيت، ودس قدميه بحذاء الرياضة، ثمّ أخرج المسدّس الذي يخبئه في الخزانة، ووضعه تحت حزامه.

هبـط الدرجـات، وخرج من بـاب العمارة، ووقـف ينتظر مرور سيارة أجرة.

شاهده البقال أبو عمر، فأقبل عليه وصافحه.

وقال له: كنت سأصعد إليك، لأدعوك إلى المشاركة في التظاهرة التي ينظمها الأهالي في القدس غدًا، والمتضامنون معهم، من أجل تسليم جثامين الشهداء المحتجزة.

استـمع إليه وهو شـارد الذهن، وظل أبو عمر يتحدث: سيذهب وفد من حارتنا مع السيدة أم جليل لشد أزرها، ونتمنى حضورك.

شـاهد أحمد سيارة أجرة قادمة، فأشار إليها، فتوقفت أمامه، شدّ على يد أبو عمر قائلًا: أراك مساءً.

ركـب السـيارة، وطلب منـه أن ينقله إلـى مكتب النخلـة لتأجير السيارات.

* * *

استأجر سيارة صالون كبيرة «دفع رباعي»، وخبأ المسدس تحت المقعد، وانطلق فيها على الشارع المؤدي إلى نابلس، ووادي الباذان.

اجتاز المستوطنات المنتشرة بمحاذاة الطريق، واجتاز حاجزيْ زعترة وحوّارة، وانعطف إلى طريق وادي الباذان، حيث لا حواجز.

توقّف واشترى زجاجة ماء. كان قد عطش وجفّ حلقه. تناول الزجاجة وشرب نصفها.

أحسّ بالانتعاش، فانطلق نحو الشارع الضيق الذي يفضي إلى الأرض. انعطف وترك الشارع الضيق المسفلت، ودخل إلى الطريق الزراعي غير الممهد.

كانت المركبة متينة وقويّة، خفّف السرعة، وظلت تتأرجح يمينًا ويسارًا بسبب الحفر وحجارة الطريق. طريق يسلكه الفلاحون على الدواب أو عربات تجرّها الدواب.

وعلى الجانبين، تطلّ صخور نحتتها الرياح، وصنعت منها تكوينات فنية مبهرة.

وصل إلى المكان الذي يحاذي أرضه، فتوقف.

أخرج المسدّس من مخبئه، ووضعه تحت زنّاره.

كان عليه أن يتسلّق المرتفع كما حدث في المرة السابقة.

هبط من المركبة، وصعد بتؤدة، ومرق من بين الصخور، كانت ورود الحنّون الحمراء تنبت بين فجوات الصخر، وكان العشب العنيد وبعض النبات الشوكي يغمر الفجوات.

صعد بحذر حتى وصل إلى نهاية المرتفع، فانكشف المشهد عن السهل المزروع بالبقول اليانعة، وظهرت عن بعد سلسلة من المناطير الجميلة.

مشى في المسرب المؤدي إلى أول منطار يحاذي بستان الرب أو مملكة جؤذر. وفي الأفق، كان سرب من الطيور يرفرف في سماء زرقاء.

كانت الطبيعة صامتة. لا هبوب ريح، ولا دبيب نملة.

فراغ واسع يظلله. لا أحد هنا عند المنطار، ولا يبدو أحد هناك.

لا أبو الخير، ولا هياتارو، ولا حتى الشبيبة الطلاّبية.

حاول الاتصال بأبو الخير مرة ثانية، لكن جهازه مغلق.

شعر بالعزلة. شعر أنّه تسرّع بالمجيء دون أن يتأكّد من وجود أبو الخير وشبيبته.

اقترب من باب المنطار، لم تكن هناك سوى كومة من الأغطية، ولم تكن هناك حقائب، أو بقايا أثر للشبيبة والمتضامنين.

لعلّهم أنهوا عملهم، وعادوا إلى جامعاتهم وبيوتهم، لكن أين ذهب أبو الخير؟!

جلس على مقعد حجر قبالة المنطار يقلّب أمره.

كان النهار قد انتصف، وعلى مدّ النظر تلة تعلوها مستوطنة، وحرش من الأشجار دائمة الخضرة، ووادٍ تركد فيه المياه العادمة، وطيور تحلّق بعيدًا ثمّ تعود أدراجها، وفراغ يمتلئ بالقلق والهواجس.

كأنّ المكان جامد لا حراك به، والزمن يغطّ في نوم عميق.

* * *

قلّب أمره، وقرر أن يذهب إلى الوادي، وقال لنفسه: ألم تكن أيام الثورة تسكن الكهوف في الجبال؟! ألم تكن أنت ورفاقك تستطلعون المكان وتحدّدون المواقع قبل أن تنصبوا خيامكم، وتنقلوا أسلحتكم وصناديق ذخيرتكم؟ ألم تستأنسوا الأرض في الجنوب ولم تعبئوا بالأفاعي والوحوش الضارية؟!

ألم تكن تنام في العراء في الصيف القائظ، وبين ثلوج جبل الشيخ في الشتاء الجارح؟

أيدركك الخوف وتحسب للمغامرة كل حساب؟

ألم تكسر حاجز الموت وأنت تعبر النهر في الأغوار؟

ألـم تكن البندقيـة هويتك ورفيقتك في مواجهـة العدو والذئاب والضباع والكواسر؟

أما كنت تتمتع بالجسارة وحب المغامرة ومواجهة المجهول؟

* * *

قـرّر أن يهبـط نحـو الـوادي، مشـى مدفوعًـا برغبة الاكتشـاف، اكتشاف المنطقة المحيطة بأرضه، بالوادي، وبدغل الأشجار، وكان لديه حدس بأنّه سيجد أثرًا من أقدام أبو الخير.

كان هناك مسـرب للمشـي مسـوّى خالٍ من الحجـارة والحفر، سلكه بسهولة أحيانًا، وأحيانًا بحذر.

وعلـى الجانبيـن حجارة كبيرة ونباتات شـوكية وبعـض الزهور البريّة، ولم يخل الأمر من حركة للسحالي والسلاحف.

وانعطـف مع المسـرب بمحاذاة سـفح الـوادي، حيـث الرائحة الكريهة للمياه الراكدة.

تذكّر الفيافي والصحارى التي عاش في معسكراتها بعد الخروج من بيروت. هناك في معسـكر السـارة في صحراء ليبيا، وفي البيَض في فيافي الجزائر، وفي سنكات أقصى جنوب السودان، وقال لنفسه إنّ سهول وتلال الوطن تعتبر متنزهًا أمام تلك الأماكن.

لكن الناس طيبون هناك، تقاسموا معنا شظف العيش وأحلامهم بأيام جميلة قد تأتي.

وتذكر تلك المدينة المهجورة، سواكن السودانية، التي ما زالت بيوتها التراثية قائمة، والمطلة على البحر الأحمر، والتي كان لها في الماضي شأن عظيم، وكم كان يحرص على زيارتها وهو ذاهب إلى بورسودان والخرطوم، وأيضًا وهو عائد.

ولطالما تمنى لو تسنى له أن يسكن فيها، وأن يتظلل بتراثها الحضاري والإنساني.

جلس على صفاة، حجر واسع أملس، لكي يلتقط أنفاسه.

جلس واستغرق في تأمل التلال البعيدة المغروسة بشجر الزيتون. ومرت في خلده صور شتى للأماكن. وللأماكن الكثيرة التي شاهدها أو زارها ألق وجمال: بطرسبورغ التي كانت تسمى لينينغراد، عندما زارها في موسم الليالي البيضاء، وشاهد فيها عرضًا لباليه بحيرة البجع قدمتها فرقة البولشوي.

وزار متحف دريسدن في ألمانيا، وشاهد لوحة المادونا للرسام رافائيل التي سرقها اللصوص أثناء الحرب العالمية الثانية، واستعادها الجيش السوفياتي، ورممتها مديرة متحف موسكو. ومديرة المتحف جاءت من موسكو إلى دريسدن لتفحّص اللوحة.

وجدتهـا في حالة رثّة، فطلبت نقلها إلى موسـكو لترميمها. سـألت الجنرال قائد الجبهة: كيف ننقلها؟

أجابها: أنقلها بطائرتي الخاصة.

ردت عليه: وإذا سقطت الطائرة؟

أجابها: أنا معها على الطائرة. أنا الجنرال قائد الجبهة.

أجابته: سـيدي، يوجد في العالـم مئات الآلاف من الجنرالات، ولكن لا يوجد في العالم سوى مادونا واحدة.

وتذكّر زيارته لبلدة فايمر في ألمانيا، وزيارة متحف الشاعر غوته الذي يجاور النهر، كان غوته يسـبح في النهر عاريًا، وبعد السـباحة يلبـس ثيـاب الفـارس ويمتطي جـواده ويتجـوّل وسـط الأحراش، وعندمـا يعـود إلـى بيته، يجلـس على كرسـي عالٍ على هيئة سـرج الحصان ويبدأ الكتابة عن الفروسية.

ما الذي جعله يتذكّر تلك الأماكن؟

لعلّه عقله الباطن الذي نقّته هذه الطبيعة من الشوائب.

لعلّ جسـارته وعبوره هذه الأراضي قد كشـفا سـرّ الليل المتفق عليه بين خطوات فدائي قديم وزهور الحنّون.

ألم تكن قلقًا عندما شاركت في عمليـة فدائية انطلاقًا من أغوار الأردن الشمالية، وكانـت تلك هـي التجربة الأولى لـك؟ ألم تكن قلقًا ومتهيبًا؟

لكنّك عندما عبرت النهر ووضعت أقدامك على أرضك المحتلة، صارت الأرض مُهْرة، صارت مهُرة مستأنسة، وها أنت بعد طول تردد تستأنس هذه المنحدرات والمرتفعات والتلال والأحراش، ولا يخطر ببالك مغادرتها.

الفصل الثامن والعشرون

طال جلوسه على الصفاة، الحجر الأملس الذي تحيط به نباتات الميرمية التي تتفتّح على أوراقها براعم حمراء وبيضاء.

عرفها من رائحتها، فقد كانت الميرمية، وما زالت، جزءًا من مؤونة البيوت في فصل الشتاء، هي نكهة تمزج مع الشاي، ودواء لأمراض البرد.

قطف عِرقًا منها، ورفعه إلى أنفه، وشمّه بتلذذ.

وقف، وواصل طريقه عبر المسرب الضيق صعودًا إلى أعلى التلة، وبدا على الجانبين بساط من العشب الأخضر اليانع تطرّزه زهور بريّة تزيده بهاءً.

لم يكن الصعود صعبًا، كان المرتفع يتدرّج في صعوده بزاوية منفرجة، بل إنّه يحتوي على كثير من الحجارة التي يسمونها: الصفاة، فيستطيع أن يجلس ويرتاح لو تعب.

صعد بهمّة، وهو ينظر إلى الزهور والنباتات البريّة.

يا لهذه الأرض الخصبة التي تنام بذورها في باطن الأرض طوال الشتاء، ثم تستيقظ وتنشر أسرارها في الربيع!

مشى صعودًا يتأمل الزهور وكأنّه نسي كل شيء، نسي غياب هياتارو وقلق نرمين واختفاء أبو الخير، وتفرّغ لعقد صداقة مع هذه الأرض الطيّبة والعريقة.

حاول أن يتذكّر أسماء الزهور، صار يتوقف عند كل فصيل من الورد تقع عليه عيناه: تلك نبتة العشرق أو الخزرق التي تنبت على شكل شجرة صغيرة جذرها تحت الأرض، وساقها تحت الأرض، وأغصانها فوق الأرض، وتزهو الغصون بزهور صفراء فاقعة أو زهرية مفرحة.

يتوقف برهة، ويلتقط من كاميرا هاتفه الجوّال صورًا لتلك النبتة وزهورها.

يصعد، ويجلس على الصفاة يتأمل: وهذا بستان ورود وزهور منوّعة تسكن وتتجاور كعائلة، إنّه النرجس البري بلونه الأبيض النقي، نرجس يرفع رأسه بشموخ، وحول النرجس ورود شقائق النعمان التي يسمونها الحنّونة تتناثر بانتظام، وتضيء البستان بلونها الأحمر القاني. ومن الجانب الآخر، ومن داخل حفرة غمرها ماء الشتاء وحوّلها إلى ما يشبه مستنقعًا، تطل زهور اللوتس الزرقاء التي تخرج سيقانها من الوحل وتطلق زهورها دون أن تتلوث.

التقـط المزيد من الصور، وشـعر أنه صار يمتلك ألبومًا سـاحرًا لورود لا تذبل مهما طال الزمن.

عـاد إلى الصعود، وبـدأ يقترب من القمّة. وصـار يتعين عليه أن يأخذ الحذر، فقد صار المرتفع في ربعه الأخير كزاوية حادّة.

صـار يتعربـش ويزحـف، ويمسـك بأطـراف الصخـر، وجذور النباتات الشوكية، وكان وهو يبذل جهدًا فوق طاقته يمضي قدمًا في الصعود، وإذ اقترب من النهاية، صارت أغصان شـجرة بلوط تتدلى نحوه، تسـاعده كما لو أنّها تمد له أذرعها لتنتشـله، واسـتجمع بقايا قوّته وقفز إلى الأعلى، ووجد نفسه على سطح الغابة المنبسط.

وقف يلتقط أنفاسه، وينظر حوله.

الأشـجار كثيفـة، وتتعانـق أغصانها. عرف منها أشـجار السـرو والبلوط والبطم والسنط، وأشجارًا أخرى لم يعرف اسمها.

هـا هو يصل إلى الحرش، يصل إلى المكان الذي ينام فيه جؤذر داخل شجرة عملاقة، ولكن أين هي تلك الشجرة العملاقة؟ بل أين هو أبو الخير؟

جلـس تحـت شـجرة البلـوط يقلّب أمـره، يفكّـر فيمـا عليه أن يفعل.

هل يدخل هذا الدغل ويضيع في متاهاته؟ هل يغامر دون أن تكون لديه خبرة عن مدخل الحرش ومخرجه، ومساربه ومنعطفاته؟

هل الحرش يحوي وحوشًا ضارية، أو أفاعي سامّة من العرابيد السود؟

وصل في تفكيره إلى ضرورة التأني. لعلّ أبو الخير في مكان ما من هذا الحرش. أقنع نفسه بالتأني قبل اتخاذ القرار.

فجأة، تذكّر أنه يحمل مسدسه، ما جعله يشعر بشيء من الطمأنينة.

تأنّى قليلًا، ثم أخرج مسدسه، وسحب رصاصة من بيت النار، ورفع المسدس عاليًا، وأطلقها. دوّى صوتها، وتردد صداه في عمق الوادي. كانت تلك وسيلته للبحث، رسالة ونداء إلى أبو الخير، إن كان موجودًا في المكان.

ويبدو أن صوت الرصاصة قد أحدث ذعرًا لدى حيوانات صغيرة في الحرش، فقد مرّ قريبًا منه بعد برهة قطيع غزلان يندفع بعيدًا عن المكان ويتجه إلى العمق.

وكان عليه أن ينتظر. لو كان أبو الخير قريبًا، فسيحتاج إلى وقت حتى يحدد المكان الذي انطلقت منه الرصاصة.

أحسّ بالعطش، ليته اصطحب زجاجة الماء معه، بل إنّه شعر بالجوع، لكنّه صرف النظر عن التفكير في ذلك مؤقتًا.

كان قـد جلس على العشـب، سـوّى المكان وأزاح نبتة شـوكية وحجارة صغيرة وجلس متربعًا.

طال انتظاره دون أن يظهر أبو الخير.

خطر له أن يهبط ويعود إلى السهل وإلى الحقل المزروع بالبقول، الذي تحيط به المناطير.

فجـأة، سـمع صوتًا ينـادي، صوتًا عاليًـا تردد صـداه في أطراف الوادي.

كان بحاجـة لصوت إنسـان أيًّا كان، وخيّل إليـه أنّ الصوت جاء من جهة المناطير.

من بعيد، شـاهد رجلًا يمتطي حصانًا، لكن ملامح الرجل الذي يعتمر حطة وعقالًا لم تكن واضحة.

كان عليه أن يجيب وأن يحدد مكانه.

سحب المسدس عن وسطه، وأطلق رصاصة في الهواء.

بـدا أنّ راكب الحصان انتبه إليه، فكأنّه رفع رأسـه إلى أعلى، بل إنّه -كما بدا- شدّ لجام الحصان وأطلق له العنان.

* * *

تابع الحصان وهو يعدو في السهل، ثمّ وهو يهبط المسرب خببًا، ويصعد المرتفع بارتباك وحذر.

بدت ملامح الرجل الذي يتخفّى بثياب فلّاح، إنه أبو الخير نفسه.

ترجّل عن حصانه، وأزاح اللثام عن وجهه، ومدّ يده وصافحه.

صافحه بحرارة، وقال له: كم أنت شجاع يا معلمي! كيف وصلت إلى هذا المكان؟

أجابه: الأرض مثل مهر البراري؛ من السهل استئناسها وترويضها.

ردّ أبو الخير: الآن صرت واثقًا بأنّك سيد هذه الأرض.

ويبدو أنّ أبو الخير قد لاحظ من نبرة صوت صاحبه أنّ حلقه جاف، فاستدار وجلب من خُرْج الحصان زمزمية الماء، ودفعها إليه، فتناولها أحمد وشرب حتى أطفأ ظمأه.

- أين كنت؟

سأل أحمد، وأضاف: اتصلت بك، وكان هاتفك مغلقًا.

خلع أبو الخير الحطة والعقال عن رأسه، وقال: صحيح، هاتفي مغلق منذ أسبوع. وسأقول لك لماذا.

أخذ نفسًا طويلًا، وأكمل: تعرف أننا جمعنا عظام الشهداء التي جرفتها الأمطار وغمرتها المياه العادمة، ولم نتمكن من إخراج ما تبقى منها داخل المقبرة بسبب وجود الألغام.

ما جمعناه يعود لخمس عشرة جثة، وما تبقى في تقديرنا لعدد مماثل.

كنا خلال الأسبوع نبحث عن مكان لدفنها بالتعاون مع وجهاء أقرب قرية منّا. سأشرح لك التفاصيل لاحقًا.

هزّ أحمد رأسه، ثمّ سأله: هل كانت هياتارو معكم؟

أجابه بأنّها فعلًا كانت معهم، ووثّقت الدفن بكاميرتها.

وسأله: أين هي الآن؟

أجابه: عادت إلى البيت ولم تكن السيدة نرمين هناك، كانت تشارك في مسيرة تضامنية للإفراج عن جثمان الشهيد جليل في القدس، لكنّ خليل اتصل بها وطمأنها.

وأضاف: أوصلتها وذهبت إلى بيتك فلم أجدك، وعدت بسيّارة أُجرة، ولعلّك ستسألني عن هذا الحصان، وقبل أن تسأل أجيبك أنني استعرته من أصدقائي الجدد في القرية المجاورة.

وأضاف أيضًا: أخبرني هؤلاء أنّ أرضك، بما فيها هذا الحرش، مصنّفة (ب)، وبالتالي، فلا سلطة للاحتلال على البناء عليها.

واستدار، ونظر إلى الحصان، وقال: والآن، هيا نقوم بجولة قصيرة داخل هذا الحرش.

الفصل التاسع والعشرون

قال أبو الخير: هذه الأشجار كائنات حيّة، تنمو وتتنفس وتتغذى وتتشمس، ومثل الصبايا تنشر أسرار جمالها.

وأشار إلى شجرة البلوط، وقال: هذه شجرة السنديان، نحن نسميها شجرة البلوط، هذه الشجرة تنحني وتكسر جذعها إذا تسلّقها ولد، تنكسر في لحظة خطر لكي لا ينكسر الولد!

وانظر إلى ساقها العالية والأوراق التي تكسوها، مثل قامة سيّدة تزيّنت وتعطرت وسوّت شعرها كأنها ذاهبة إلى سهرة.

كان أحمد يستمتع بكلام أبو الخير، ويتساءل بينه وبين نفسه: متى خرج من القمقم أبو العجب هذا؟!

التفت أبو الخير إليه، وقال: الآن ندخل إلى العمق.

سار معه من تحت الأغصان المتشابكة، وكان أبو الخير يسبقه بخطوة، ويرفع له الأغصان ليسهل له المرور.

- وهـذه شـجرة قيقب، إنّهـا دائمـة الخضرة، طويلة وممشـوقة القـوام، تزهـو بأوراقها الملسـاء، وبراعمها التي بـدأت تطلّ وتزهر وتتدلى مثل أجراس الزينة التي تتدلى من شجرة عيد الميلاد، وعمّا قريب تنضج على أغصانها الثمار اللذيذة التي تشبه ثمرة الفراولة.

هذه الشـجرة مهـددة بالانقراض؛ لأنّ خشـبها الأفضـل للوقود والتدفئة، والأجود لصناعة الفحم. تجّار الحطب والفحم في بلادنا يحتطبون بها ويجتثونها اجتثاثًا؛ لذلك يجب أن نحميها وعلى المعنيين بالزراعـة فـي حكومتنا أن يشـرّعوا القوانيـن لمنع الاعتـداء عليها.

كان أحمـد يتأمّلهـا بإعجـاب، ويتخيلهـا كواحدة مـن الصبايا، ويلتقط لها صورًا من كل الجوانب.

اتسـع المشهد، وبدأت تظهر فسحات بين الشجرة وأختها، صار هناك فضاء، فضاء وعشب أخضر تتناثر حوله زهور بريّة.

- وتلـك شـجرة الصنوبـر، شـجرة عالية شـامخة، يحلـو التفيؤ تحت ظلها، كأنها مظلّة. هي شجرة معمّرة ترمز إلى الحكمة، وتنتج براعـم في مثل هذا الوقت، وتنتج زهورًا صفراء، وأكوازًا مخروطية تُجفّف، ثم تؤخذ منها حبات الصنوبر.

هي سـيدة عالية المقام، تلبس لباسها المحتشم وتتدثّر بعطر ذي رائحـة سـاحرة. وإذا رغبت في أن تتأكد، اجرح لحاءها، فسـيخرج منه زيت عطري.

كان أحمد مستمتعًا، وللحظة، تخيل أنّه سائح، وأنّ أبو الخير هو الدليل.

- انظر هناك إلى تلك الأشجار، إنّها أشجار السرو والصفصاف. خلفها عدد كبير من أشجار السدر، وتبدو على الأقل واحدة منها. هناك يرعى النحل، يمتصّ رحيق أزهار السدر، وقد وجدت بين الصخور التي تحاذي المكان خلايا كثيرة للنحل فيها أقراص شمعية وكميات هائلة من العسل، العسل المأخوذ من رحيق السدر هو أجود أنواع العسل، وسأجمع لك العسل في جرار صغيرة لتهديها لأحبابك. السدر شجرة مباركة، أوراقها جميلة وزهورها تسرّ النظر، وثمارها حلوة المذاق.

على هذا النحو استمرّت الجولة، وعلى هذا النحو ظلّ أبو الخير يحكي عن أشجار العوسج، والزعرور، والجوز، والميسم، والخرّوب، والسنط، والطلح. وقال أبو الخير، فيما قال، إنّ هذا الحرش يشبه محميّة طبيعية، لا وحوش ضارية فيها، فيها غزلان فقط.

وأخيرًا، وصلا إلى فسحة مطلة على الجانب الآخر للجبل، مبنيّ بها كوخ صغير. قال أبو الخير إنّه مبني من زمان، لكنّه رمّمه. ربما كان يستعمله الرعاة.

الكوخ يطل على قرية قريبة محاذية للسفح.

- هـذه قريـة صغيـرة أهلها نشـامى وكرماء، سـاعدوني في دفن رفـات الشـهداء. دفناهم هنـاك على تلـك التلة التي تظهـر على مد النظر.

وكانت نظراته تنم عن دمعة حبيسة..

وأكمـل كلامه: هنـاك حدثت معركـة كبيرة مع مجموعـة فدائية قادمة من الأغوار الأردنية في أواخر عام 1969، عبرت النهر وكانت بقيـادة المناضل الشـجاع أبـو فتحي أبو الهيجا، معركـة مواجهة مع العدو اسـتمرت سـت سـاعات، استشـهد فيهـا أربعة، وعـاد منهم خمسة إلى قواعدهم سالمين. أمّا خسائر العدو، فقد كانت فادحة.

عندما انتهت المعركة، وانسـحبت قـوات العدو، خفّ أبناء هذه القرية إلى التلة، فوجدوا الشهداء مضرجين بدمائهم، وقاموا بدفنهم قبـل أن يعود العـدو ويختطف جثامينهم، ومنذ ذلـك التاريخ، صار اسم التلة: تلة الشهداء.

هكذا وجدنا مكانًا مناسـبًا لدفنهم بشـكل لائق، بجانب رفاقهم وأبناء جيلهم؛ لهذا السبب عدلنا عن دفنهم في منطقة المناطير.

والتفت حوله، وهو ينظر إلى الأشجار القريبة بحنو، وقال:

عندما يكون الهواء شماليًّا، ترسل زهور هذه الشجيرات للشهداء تحية وسلامًا.

* * *

ثمّ سرد أبو الخير ما في جعبته من أخبار.

قال إنه اتفق مع وجهاء القرية على فتح طريق زراعي يربطها بالحرش. وقال إنّه سيبني بيتًا مكان هذا الكوخ يشرف على تلة الشهداء، وقال إنّه تعرّف على عائلة محترمة عندها صبيّة جميلة مثل القمر، وجهها مثل قرص الجبنة، مثل (جبينة) في الحكاية الشعبية، وإنّه ينوي التقدم لطلب يدها.

- أترى شجرة السرو تلك ذات القامة العالية؟ سمّيتها (جبينة) على اسم بطلة (الخرّافِيّة) الشعبية، التي انتصرت على الغول.

هنا ضحك أحمد، وقال: كم تغيّرت يا أبو الخير، كأنك تخرج من حكايات كان يا ما كان!

ابتسم أبو الخير وقال: بلدنا بحد ذاتها أسطورة، وذهب الأسطورة هو خراريف الجدّات.

سميت كل شجرة باسم واحدة من تلك الخراريف!

واحدة سميتها (جبينة)، جبينة اللي وجهها مثل قرص الجبنة، وكانت مخطوبة لشب حلو زي القمر. كل بنات البلد كانوا يحبوها، ما عدا ثلاث بنات كانوا يغاروا منها. صاحباتها الثلاث طلبوا منها تروح معاهم ع الغابة يلقطوا ثمار الدوم. راحت معاهم تلقّط الدوم، البنات قالولها اطلعي على الشجرة ولقطي الدوم وارميه لتحت واحنا بناخذ إلنا، وبنحطلك حصتك بالسلّة.

حطولها السلّم وطلعت على شجرة الدوم العالية، وصارت تلقّط حبات الدوم وترميها للبنـات، البنات جمعوا الدوم كله وحطوه في سلالهم، وسحبوا السلّم عن الشجرة، وتركوا جبينة فوقها، وروّحوا على بيوتهم. وراحوا عند أمها وقالولها: الغول أكل جبينة.

وأمّها لطمت على خدودها، وموتت نفسها من البكا.

برجـع مرجوعنا لجبينة. صـارت الدنيا ليل، وجبينـة عالقة فوق الشجرة تبكي.

أجا الغول يستريح تحت الشجرة، وقال: شامم ريحة إنس.

عرف إنه جبينة فوق، فقال: انزلي.. ارمي حالك عليّ.. إذا جيتي علـى كتفـي اليمين، أتّخذك خادمـة، وإذا جيتي على كتفي الشـمال راح آكلك. رمت حالها أجت على كتفه اليمين، فأخذها لبيته ترعى الغنم.

صـارت جبينة ترعـى الغنم وتغني للطيور: يا طيـور الطايرة، في السـما العاليـة، قولـوا لأمي لسّـه جبينة عايشـة، بترعى غنـم وبقر، وبتنـام تحت الدالية. الطيـور حفظوا الأغنية، وراحـوا غنّوها تحت شـبّاك خطيبهـا. خطيبها حكى لأمهـا، وراح حمل سـيف وخنجر، والطيـور دلّته على الطريق (الحكاية طويلـة). المهم خطيبها وصل وشـافها، وصـارت حِيَلْ ومكائـد، وفي النهاية خطيبهـا قتل الغول،

ورجع معاها للبلد، والناس كرهوا البنات اللي غدروها وصاروا عوانس ولا حدا فكّر فيهم، أما جبينة، فصارت إلها حفلة زواج، دبكة وتعليلة، وتزوجت حبيبها، وعاشوا في سبات ونبات، وخلّفوا صبيان وبنات.

أنهى أبو الخير الحكاية، وكان أحمد يستمع بلذّة، فعقّب قائلًا: ذكرتني بطفولتي، كانت جدّتي تقص علينا الخراريف في ليالي الشتاء، ونحن نلتمّ حولها أمام كانون النار.

وقال أبو الخير: وسميت شجرات أخرى: شجرة الشاطر محمد، وشجرة أخرى سمّيتها شجرة حديدان، وثالثة، شجرة نص نصيص، وأسماء أخرى: عديدسة والغول، والواوي اللي بلع منجل.

قال أحمد: في كل قصة غول. الغول هو المعادل للغازي، للعدو.

لكن في الحكاية شاطر شجاع يتغلّب على الغيلان. تراثنا الشفوي غني ومسلٍّ، وفي باطنه حكمة وعظة.

وصمت قليلًا، وأكمل: تذكّرت ما كنت أودّ أن أسألك عنه، أين هي تلك الشجرة التي ينام بها صاحبك جؤذر؟

الفصل الثلاثون

كان الوقت قد تخطى العصر واقترب من الغروب حين طرح أحمد سؤاله، فظلّ أبو الخير صامتًا، بل إنّه دخل الكوخ وأخرج فانوسًا وأطباقًا.

ثمّ دخل بين الأشجار وغاب قليلًا، وعاد وهو يحمل الخرج الذي كان محمولًا على جانبي الحصان، وبدا أنّه يحتوي على خبز وطعام.

فرش الأرض بقطعة قماش بيضاء، وفرد على المائدة الخيار والطماطم والزعتر والزيت واللبنة وعلبة تونة، وقال:

أعرف أنك جائع، وحان الوقت لنتقاسم الزاد.

كان أحمد قد نسي جوعه، وكان قلقًا بسبب تجاهل أبو الخير لسؤاله.

لم يمد يده للطعام، في حين بدأ أبو الخير يغمّس اللقمة بالزيت والزعتر.

لاحظ أبو الخير تردده، فتوقف ولم يرفع لقمة الزاد إلى فمه، وقال:

أنا كنت وما زلت مرافقًا لك. أنت معلّمي، وعمّا قريب أعود إلى عملي، لكنّ قلبي سيبقى هنا.

وصمت قليلًا، وأضاف: طالما أكلت من زادك في البيت، فأرجوك أن تأكل من زادي هنا.

وصمت مرّة أخرى، وقال: لم أُجب عن سؤالك عن شجرة جوْذر لأنني لا أمتلك الجواب. جوْذر فكرة.

ابتسم أحمد ابتسامة ما. وقال: ها أنت يا صديقي صرت حكيمًا. أو تحتذي بحذاء الحكماء. من علّمك الحكمة؟

أجاب أبو الخير: رافقتك زمنًا طويلًا. تعلمت من أحاديثك ومحاضراتك ومقالاتك، ومن الكتب التي حببتني بها. كنت أُخزّن كلمات ومفردات ومعلومات دون أن تلحظ ذلك. كنت طوال الوقت صامتًا، ثمّ فجأة خرجت عن صمتي. أنا تلميذك أيّها المعلّم.

مدّ أحمد يده وغمس لقمة خبز باللبنة، ووضعها في فمه، وفيما هو يلوكها، قال أبو الخير:

جوْذر مثل السندباد؛ يغيب عن بلده في مغامرات جسورة ويواجه العواصف والغيلان والرياح والسحرة والكائنات الغريبة، لكنّه يعود مثل فجر عنيد. ينهض من قلب الرماد كطائر الفينيق.

كان أحمد مندهشًا، وفي الوقت نفسه يشعر أنّ في قلب كل إنسان سنديانة.

أتمّا طعامهما دون المزيد من الكلام، وبعد أن رفع أبو الخير ما تبقى من الطعام، تهيّأ للوقوف قائلًا:

هيّا نذهب إلى تلك الشجرة.

تردد أحمد، وأحسّ بأنه يتعين أن يبقى للأسطورة غموضها.

شجّعه أبو الخير: إنها قريبة من هنا.. هيّا.

جمّع أحمد قواه، ووقف. لم يعتد الجلوس على الأرض متربعًا، كان يشعر بخدر تسلل إلى ساقيه.

تحامل على نفسه ووقف. كان الوقت وقت الغروب، لكن ما زال هناك بصيص من الضوء.

سارا مسافة قصيرة. توقفا عند شجرة سنديان صغيرة وضئيلة.

قال أبو الخير: هذه شجرة جؤذر.

فوجئ أحمد، ألم يقل أبو الخير إنها شجرة عملاقة ينام في ساقها الغليظة جؤذر؟!

قرأ أبو الخير، على ما بدا، أفكاره، فردّ قائلًا:

رأيته في المنام، وقال لي إنه سيخرج من ساقها لينام عند جذورها، وقد فعل، نام عند جذورها ليقاسمها الغذاء، قال إنه سينام

طويلًا ويستيقظ بعد زمن لم يحدده، ومنذ ذلك اليوم، بدأت الشجرة تضمحل، ربما لتوفّر الغذاء الذي يمكّن جذورها من إطعامه.

فكّر أحمد وهو يتأمل، فكّر في هذه الشخصية التي اخترعها أبو الخير، أو اخترعها عقله الباطن، أو اخترعها مناصفة مع سمعان الناصري، لعلّه خلقها كشخصيّة مثلما يخترع الروائي شخصياته ويطلقها على الورق، وتصبح حيّة في مخيلته. وقال لنفسه: ولماذا أبحث عن تفسير؟ فمتى كانت الأساطير الخارقة بحاجة إلى تفسير؟ ألا يفسد ذلك سحرها؟

قال أبو الخير: والآن، إذا شئت، نشرب شايًا نغليه على الحطب.

نظر إلى ساعته، وقال: شكرًا. حان الآن موعد عودتي.

أجابه أبو الخير ضاحكًا: أوصلك إلى المركبة، وأركب الحصان إلى قرية جبينة.

الفصل الحادي والثلاثون

كان هاتفه الجوّال قد نفد شحنه، وفيما هو منطلق في الطريق السريع عائدًا إلى رام الله، كان يشعر بوحشة ويرغب في الحديث مع نرمين ويسمع منها أخبار التظاهرة في القدس، وأخبار هياتارو وخليل.

كان يومه طويلًا في زيارة الأرض والحرش. وكان بحاجة لوقت وزمن لكي يتأمل أكثر فيما قاله أبو الخير.

كأنّ كلام أبو الخير أسئلة لا أجوبة، أسئلة الهوية، أو ثنائية الهوية والأرض، أو جمال المكان المستدام وارتباطه بالإنسان الذي سكنه وتحت شمسه أقام العمران، ونثر ذهب روحه وصنع قصصه وحكاياه وخراريفه وأسطورته.

صنع أبو الخير أحلامه وأشواقه، وانتزع جؤذر من رواية الاستشراق، وزرعه فكرة، وشجرة، وجذورًا، وبراعم، ونوّارًا، وزهورًا، وأجراس ميلاد، وأذان فجر، وتراثًا حضاريًّا، بعفوية ابن البلد، وسجاياه، وصفاء قلبه، ونقاء سريرته.

ما كان عليه أن يسأله ذلك السؤال، ما كان عليه أن يخدش الأسطورة، فصورة القصيدة في خيال الشاعر أروع من صبّها على الورق، وأحلامنا وتوقنا إلى الحرية، أجمل من أحلامنا التي نراها في مناماتنا. أبو الخير يتطلّع إلى الأمل بعد اليأس، والفَرَج بعد الشدة، فليمتلئ قلبك بالفرح أينما كنت وحيثما حللت يا أبو الخير.

حوار داخلي، ومونولوج ظل يصاحب أحمد طوال الطريق في هذه الليلة التي يطل فيها قمر مكتمل على الأكواخ والفلل، وعلى الأمكنة الجامدة، وعلى الزمن المائع.

* * *

وصل إلى رام الله. رَكَنَ المركبة، وهمّ بدخول العمارة.

فوجئ بصوت البقّال أبو عمر يناديه ويستوقفه.

أقبل أبو عمر إليه، وهو يقول: أين أنت؟ افتقدناك اليوم في التظاهرة.

لاحظ أنّ جرحًا في جبين أبو عمر مغطّى بالشّاش.

- كانت تظاهرة حاشدة، هاجَمَنا جيش الاحتلال بالهراوات وقنابل الغاز، والرصاص المطاطي، لكننا أوصلنا صوتنا للعالم، وكانت المحطات الفضائية تنقل على المباشر.

لم يرَ ماذا يقول ليبرر تخلّفه عن المشاركة، واكتفى بسؤاله عن الجرح في جبينه، فتوقف أبو عمر عن طرح الأسئلة، وأجاب وهو يشدّ قامته، بصوت يحمل الفخر والاعتزاز:

هذا وسام على جبيني.. ضربوني بالهراوات.

واكتفى أحمد بالقول: ألف سلامة.

واستدار، وصعد الدرجات إلى الطابق الثالث.

فتح الباب، وأضاء النور، ودخل البيت.

سحب المسدس، ووضعه على الطاولة.

سارع إلى وَصْل هاتفه الجوال بالشاحن.

شرب كأس ماء، ثمّ أخرج الدفتر الصغير من جيبه، وجلس على الكنبة.

قرّر أن يكتب على الدفتر برنامجه العاجل حول ما يجب أن يفعله.

كان ذهنه مشوشًا، كان يفكر في وقت واحد في نرمين، وابنته ياسمين، ورفاقه في هيئة المتقاعدين، وأبو الخير، والحرش، وربط الأرض بالشارع العام أو بالقرية القريبة، ومنحلة عسل السدر، وتلّة الشهداء، وتفاصيل أخرى.

عندما يفكر في أشياء كثيرة في وقت واحد، يفقد التركيز، ويتوتر.

بدأ الجوّال يعمل ويتزوّد بالطاقة.

وضع الدفتر الذي يدوّن عليه مشاغله ومواعيده جانبًا، واقترب من الهاتف دون أن يفصله عن الشحن، وتفقّده.

ياه! مكالمات عديدة جاءته، اثنتان من نرمين، وست من ابنته ياسمين، ومكالمة واحدة مجهولة.

عليه أن ينتظر قليلًا إلى حين شحن أفضل للهاتف.

نرمين كانت في التظاهرة، نرمين كانت وسط قنابل الغاز وطلقات الرصاص المطاطي، والهراوات.

نرمين اتصلت به وهي تحت سقف النار.

ما أحوجني إليك أيتها اليد الدافئة!

لم ينتظر، قام إلى الهاتف الأرضي، واتصل.

ردت على الاتصال هياتارو. فرحت به ورفرفت، وقالت إنّ نرمين في اجتماع مغلق في الصالون، هناك اجتماع حول ما جرى اليوم تقول إنّه مهم. الصالون مغلق، ولا تسمح نرمين لي بالدخول.

وقالت إنّها ستبلغها بعد انتهاء اجتماعها.

أغلق الهاتف. لم يشأ أن يسألها عن الاجتماع وعمّن يحضره، لعلّ للاجتماع علاقة بعملها في الجمعيّة التي تديرها.

عاد إلى الهاتف، وطلب ابنته ياسمين. وسرعان ما رفعت السمّاعة وجاء صوتها، اندفعت بالكلام يسبقها حنينها وتسبقها لهفتها، وتلقف حنينها ولهفتها بشغف وحب ودمعة.

كانت مكالمة طويلة، ودارت حول قرارها بالسفر والمجيء إلى رام الله للولادة بعد أن سمح لها الطبيب بركوب الطائرة.

رحّب بالفكرة، وقال إنّه سيبقى معها، وإلى جانبها، وإنّها ستعيد للبيت الدفء والفرح، وسيحيطها الدكتور نادر بالرعاية الطبية.

بعد انتهاء المكالمة، نزلت دموعه، ونظر إلى صورة جميلة المعلّقة على الجدار، كانت تنظر إليه نظرة عتب كأنما تقول له: أنسيتني؟!

انتابه حزن وإحساس بالوحدة، إحساس بالعزلة، إحساس بصقيع طالما غمر هذا البيت.

نزلت دموعه، ونهنه ثمّ انفجر بالبكاء.

مرّت في خلده صور وذكريات ومواقف وأحداث وحنين ورحلة عمر.

في خريف العمر، تصبح الدمعة سخيّة، والقلب شديد الليونة.

أفرغ شحنة ورعشة وأحاسيس مضنية.

* * *

كان الوقت يمر ببطء دون أن تتصل نرمين.

فكّر في الاتصال بالرقم المجهول، دقق في الرقم على شاشة الهاتف المحمول، فعرف أنّها مكالمة خارجية.

من يكون يا ترى؟!

طلب الرقم بدافع معرفة صاحب هذه المكالمة، ورنّ الخط على الطرف الآخر. ردّ صوت آلة تسجيل عرف أنها باللغة الألمانية.

ياه! أيكون سمعان الناصري؟

لكنّ رقم سمعان مسجل في قائمة الأصدقاء على هاتفه.

ترك رسالة مسجلة بصوته، وأغلق الهاتف.

وبعد ذلك، ظلّل البيت فراغ.

استبدل ملابسه، ارتدى ملابس النوم. تمدد على السرير، وأطفأ النور، وأغمض عينيه.

نام نومًا متقطعًا وقلقًا، وتقلّب مرات عدة.

ربما في الهزيع الأخير من الليل رنّ هاتفه الجوّال.

كان الهاتـف بجانبـه، أشـعل النـور، وفـرك عينيـه، وبيـن النوم واليقظة، ردّ على المكالمة.

كانــت نرمين على الطرف الآخر. كان صوتها متعبًا، كان صوتها يشي بإعياء وتعب.

اعتذرت له عن اتصالها في هذا الوقت المتأخر.

قالــت إنّ يومهـا كان مرهِقًـا وطويـلًا، وإنّها تعرضــت لأذى من قنابل الغاز، لكن نتائج التظاهرة كانت إيجابية.

جرى بعد التظاهرة اتصال بين الارتباط العسـكري الإسـرائيلي والارتباط الفلسطيني، وعرض الإسرائيليون تسليم بعض الجثامين بشـروط؛ أولًا: أن يدفـن الجثمـان منتصـف هـذه الليلـة، وثانيًـا: ألا يرافق مراسـم الدفن أكثر من خمسة أشـخاص، وثالثًا: ألاّ يرافق مراسم الدفن أي إعلامي أو كاميرا إعلامية.

وكان الليلـة اجتمـاع عنـدي فـي البيت لمناقشـة هذه الشـروط بحضـور منـدوب عن الارتبـاط الفلسـطيني وذوي الشـهداء، ومن بينهم السيدة أم جليل.

وقالت إنّ الاجتماع كان مضنيًا، كنّا تحت ضغط الوقت، وضغط عواطف أهالي الشـهداء، وضغط الشـروط الإنسـانية التي يتعيّن أن نتمسك بها.

وقالت إنها رافقت السيدة أم جليل وبضعة رجال لدفن ابنها الشهيد جليل، فقد رأت أنّ دفنه على هذا النحو أرحم من بقائه في الثلاجة كسمكة مجمّدة.

شعر بالوهن في صوتها، فأشفق عليها، وأنهى المكالمة متمنيًا لها نومًا هانئًا.

الفصل الثاني والثلاثون

استيقظ على رنين هاتفه الجوّال.

أزاح الغطاء، وجلس. نظر إلى الرقم، الرقم الخارجي نفسه.

على الخط الآخر صوت امرأة، كلّمته بالإنجليزية.

عرّفت نفسها، إنّها صوفي قطعة الشوكولاتة، الأبنوسة الجميلة، خليلة سمعان الناصري وحكاية عشقه.

قالت إنّها قادمة مع مجموعة سياحية لزيارة فلسطين، الأرض المقدّسة، وإنها كمسيحية تريد أن تحجّ إلى كنيسة القيامة في القدس، وكنيسة المهد في بيت لحم.

لم تذكر شيئًا عن سمعان.

رحّب بها، وسألها عن سمعان، فصمتت قليلًا، ثمّ قالت بارتباك: إنّه مسافر.

وقالت إنّ رقمك مسجل في دليلنا الشخصي. وسبق له أن حدّثني عنك كثيرًا.

وقالت إنّها قادمة مع المجموعة على طائرة اللوفتهانزا إلى مطار بن غوريون.

أجابها: نحن نسميه مطار اللد، كما كان قبل الاحتلال.

ردت عليه قائلة: أنا لا أعرف. هكذا يسمونه.

تمنّى لها إقامة طيبة، وأغلق الخط.

ها هي المرأة التي نحت شخصيتها في روايته ووصفها بأجمل الأوصاف، ها هي تخرج من دفتره وتأتي إلى البلد كسائحة.

في الرواية، جعلتها تتطلع إلى حياة بسيطة في بيت على التلال له حديقة، مع جيران بسطاء لم يلوثهم دخان مدن بلا قلب.

أتكون زيارتك سيدتي زيارة استكشاف واختبار؟

وهل تعيدين النظر بعد الزيارة ؟

* * *

قام ودخل الحمّام، وبعدها دخل المطبخ، وجهّز القهوة.

كان الوقت مبكّرًا، وعليه أن يتريّث قبل أن يتصل بنرمين.

خطر له أن يذهب هذا الصباح إلى هيئة المتقاعدين، إلى رفاق الدرب الطيبين الذين ينتظرون حسن الختام.

مـاذا لو وفّر لهم منتجعًا على أطـراف الحرش ليقضوا فيه إجازة نهاية الأسبوع؟

ماذا لو كانت النهايات غير حزينة؟

ماذا لو كان الأفول جميلًا؟

مـاذا لو أتيحت لهم نزهة مع عائلاتهـم، ووجبة دافئة، ولقمة في البراري؟

ماذا لو شكّلوا فريقًا لكرة السلّة، أو تباروْا في لعبة الشطرنج؟

ماذا لو كانت هناك بركة سباحة يمارسون فيها رياضتهم؟

لم لا تكون النهايات عادلة؟

* * *

وحدّث نفسه: كيف تقفل هذه الرواية التي تعيشها، أو تلك التي تكتبها؟

كيـف تكـون نهايـة الحكايةِ لرجـل مثلـك تعلّق بامـرأة ذات يد دافئة؟

كيف تكون نهاية رواية افتراضية لها ملامح من الواقع كتبتها عن سمعان الناصري وصوفي قطعة الشوكولاتة؟

لم يعد الزمن مديدًا، ولا السقف السياسي عاليًا.

لم يعد لك دور في هذه السياسة اللعينة.

يطاردك الإهمال والتهميش فتواجه ذلك بالكتابة.

لكن من يأبه، فالرياح لا تجيد القراءة، وضابط مخابرات هنا وفي عالمنا العربي أهم من المثقف والكاتب والشاعر والمفكّر.

* * *

يا بلادي الغالية، تستحقين الحرية والديمقراطية والعدالة لشعبك المعذّب، تستحقين قيادات مختلفة، قيادات شابّة خارجة من صفوف الفقراء والبسطاء وأبناء البلد، توحد ولا تفرق، وتستنهض كل عناصر القوّة التي يتحلى بها شعبنا.

وجد نفسه يدخل على مساحة السياسة، هو الذي خرج من ممارسة العمل السياسي، وكرّس قلمه للعمل الثقافي، فلعلّ الثقافة تصلح بعض ما أفسدته السياسة.

حاول أن يهرب من أفكاره.

اتصل بنرمين، قالت إنها أفاقت من نومها قبل قليل، وها هي تتناول قهوتها الصباحية.

وقالت إنّها تفتقده. واقترحت عليه أن يلتقيا ظهرًا، وأن يذهبا معًا إلى عزاء الشهيد جليل لمواساة والدته.

قال لنفسه بعد أن أغلق الهاتف: هذه أقدارنا، أحزان لا تنتهي، ونوافذ الفرح لا تطلّ علينا.

الفصل الثالث والثلاثون

أضغاث أحلام..

البغال في مخيّم اليرموك تهيم على وجوهها.

أكلَت الأعشاب في ضواحي المخيّم حتى نفدت.

ثمّ أكلت الأوراق حتى نفدت.

وبعد ذلك نفقت إلا واحدًا.

البغل الأخير جرجر جسده الهزيل، وذهب بعيدًا في عمق الخلاء.

ذهب ليموت وحيدًا.. ليموت ميتة الغزلان.

* * *

فرّت من عين جميلة المعلّقة على الجدار دمعة. انحدرت على وجنتها ثمّ سقطت على طرف الإطار. بفعل الجاذبية، سقطت على بلاط الغرفة، وتحولت إلى حبّة لؤلؤ وتدحرجت على البلاط

وعبـرت إلـى الباب المفتـوح، وإلى درجات السـلّم، ووصلت إلى رصيف الشارع.

شـاهدها عصفور جائع، فالتقطها بمنقـاره، ولمّا وجدها صلبة، أبقاها بمنقاره ولم يزدردها.

رفع رأسـه عاليًا، ولعلّه أدرك أنها سـقطت من علٍ، وتتعيّن عليه إعادتها.

أمسـك اللؤلـؤة فـي برائنـه ورفـرف بجناحيـه، وطـار ثـمّ حطّ علـى بلكونـة البيت في الطابـق الثالث، ودون أن يسـتأذن دخل إلى. الغرفة، ونظر إلى السـيدة في إطارها، السـيدة التي تشـبه العطور في قواريرها.

قال لها: وجدت هذه اللؤلؤة، لعلها لك.

في تلك اللحظة، ذرفت السـيدة مزيدًا من الدموع، فسالت على خدّيهـا، وتعلّقت بالإطار، ثمّ سـقطت علـى الأرض وتحولت إلى حبات لؤلؤ، كأنّها حبّات عقد انفرط وسقط عن جيدها.

دُهـش العصفور، فأفلـت من بيـن برائنه اللؤلـؤة، ووضعها إلى جانب أخواتها.

* * *

شجرتان، وطائران، ومعزاتان، ورجل واحد.

الأولى شجرة لوز ذات نوّار أبيض، والأخرى شجرة زيتون تتناثر على أغصانها البراعم.

الطائر الأول قبّرة رمادية، الآخر بلبل أصفر.

المعزاة الأولى سوداء، المعزاة الأخرى بيضاء.

الرجل يلبس ملابس جزّار، ويحمل سكينًا.

قبل أن يأتي الرجل وهو يسحب المعزاتين، كان البلبل الأصفر يغرّد على غصن شجرة اللوز الذي تتفتح عليه الزهور، وكانت القبّرة تنصت بانتباه ومتعة.

عندما وصل الرجل صمت البلبل، وتوقف صرير الصراصير.

فكّ الجزّار رباط المعزاة السوداء، وشحذ سكينه، ثمّ طرحها على الأرض وجثم فوقها، وحزّ رقبتها، فشخب الدم.

لعبطت المعزاة قليلًا، ثمّ همدت.

ضحكت المعزاة البيضاء، وسخرت من المعزاة السوداء المذبوحة.

طار البلبل من على غصن شجرة اللوز، ابتعد وحطّ على صخرة قريبة.

لم تتحرك القبّرة الرمادية من مكانها، وعَرَتْها هِزّة، لكنها جمدت في مكانها.

تناول الجزار الكلاليب وعلّق المعزاة المذبوحة على غصن شجرة اللوز حيث كان يحط البلبل، واستدار إلى المعزاة البيضاء.

فكّ رباطها، وطرحها على الأرض، وجثم فوقها، وحزّ رقبتها، فشخب الدم. لعبطت مثل سمكة، ثمّ هدأت.

ارتعشت الزهور على أغصان شجرة اللوز، وارتعشت أيضًا البراعم على شجرة الزيتون.

ربط المعزاة البيضاء بالكلاليب على غصن في شجرة الزيتون، فطارت القبّرة وحطّت على شجرة قريبة.

انتقل الجزّار إلى المعزاة السوداء المعلّقة، وبدأ يعمل على سلخها، وبعد أن أتمّ عمله، نظرت المعزاة البيضاء المذبوحة، وسخرت من المعزاة السوداء المسلوخة.

طار البلبل إلى مكان بعيد، وطارت القبرة إلى الوادي، وطارت طيور الغابة، وذبلت الزهور والورود.

يا للغرابة، المعزاة المذبوحة تسخر من المعزاة المسلوخة!

الفصل الرابع والثلاثون

أكتب لك يا سمعان الناصري، وأقبّل روحك الجميلة.

حان الوقت لتنتهي هذه الرواية.

ولم أتخيّل أنّ النهايات ستكون فيها غصّة، لكنها لا تخلو من جمال.

أتعبتني بحكايتك، وألقيت عليّ عبء كتابتها، فعانيتُ، وتوتّرتُ، وزادت همومي همًّا.

لم أكن محايدًا، فقد تعاطفت مع صوفي أكثر مما تعاطفت معك.

أكتب الآن بحماسة السياسي، لا بهدوء الكاتب.

اليوم وصل إليّ الخبر الذي وصل إليك.

كانت صوفي قد كذبت عليّ كذبة بيضاء حين أبلغتني أنّها قادمة مع مجموعة سيّاح للحج إلى القدس وبيت لحم.

كانت تحرص على سلامة المهمة القادمة من أجلها.

واليـوم، لا بـد لي من أن أضـع خاتمـة للرواية من نسـج الواقع لا نسج الخيال.

حيـن وصلت طائرتها إلى مطار اللد، كانت تنتظرها نرمين، التي ذكرت لك بالتلميح أنّها يدي الدافئة.

وصلـت طائـرة اللوفتهانـزا، وخرج الـركاب بحقائبهـم دون أن تظهر صوفي قطعة الشوكولاتة.

انتظرتْ نرمين طويلًا، وقلقت كثيرًا، ولأنّها تحمل هوية القدس الزرقاء، فقد استطاعت أن تدخل الصالة، وتتوجه للاستعلامات.

قالـت لهـا المجنّدة الإسـرائيلية إنّ سـلطات المطـار الأمنية لم تسـمح لها ولمن معهـا بالدخول. جادلتهم نرمين واشـتبكت معهم بالكلام، وقالت إنهم مواطنون ألمان قادمون للحج.

قالت المجنّدة إنّهم منعوا لأسباب أمنية.

وفيما بعد، عرفت نرمين عن طريق مؤسسة (بتسيلم)، التي تُعنى برصد التجاوزات الإسـرائيلية، أنّهـم منعوا صوفي ومن معها لأنّهم ينتمـون إلـى حركـة المقاطعة الدوليـة BDS، التي تعمـل على عزل إسرائيل سياسيًّا واقتصاديًّا وأكاديميًّا.

بقـدر مـا أحزنني إغـلاق نافذة لعودتـك مع صوفـي للإقامة في أرض الوطـن، فقـد أفرحنـي أنّ صوفـي الشـجاعة التـي بداخلهـا

سندیانة، تناضل من أجل قضيتنا مع الأخلاقيات الإنسانية على امتداد هذا العالم.

اعذرني على الكلام الذي أبدو فيه كأنني ملاكم يرفع الأثقال. اعذرني لأنّ الغصة تمتزج بالفرح؛ لأنكما تناضلان على جبهة العالم الأخلاقية التي هي سلاح ناعم.

سأكتب نهاية الرواية اليوم، وستكون نهايتها مفتوحة على كل الاحتمالات.

أما حكايتي الشخصية، فقد شارفت على نهاية ما، وتجاوزت عقبتين: العقبة الأولى كانت جميلة، الحاضرة في القلب والروح والوجدان، رحلت لكن عشرتها ودفأها ووفاءها وذكراها لا ترحل.

كلّما نظرت إلى صورتها على الحائط، يداهمني إحساس غريب، أشعر بروحها ترفرف، أشعر بعتب في عينيها، أشعر أنني خنت المودة والرحمة.

لم أخف هذا الإحساس عن نرمين، ولعلّها تفهمت ذلك، وقالت إنّ ذلك يندرج ضمن السجايا الطيبة التي تجعلها تطمئن إليّ أكثر.

تحدثت مع جميلة المعلّقة على الجدار في إطارها. قلت ما يجب أن يقال. وكنت كل يوم أقرأ ما في عينيها من لوم وعتاب.

وكانت العقبة الأخرى ياسـمين، ماذا أقول لها، كيف تسـتوعب ارتباطي بنرمين. لا أريد أن أفقد مكانتي المقدّسة في قلبها.

عندما جاءت ياسـمين من الإمارات إلـى عمّان، كنت في وعكة بـرد. أصـرّت نرميـن أن تذهب إلـى عمّان وتسـتقبلها فـي المطار، وتعتنـي بهـا، وترافقها إلـى رام اللـه، وتأخذ بعين الاعتبـار وضعها كحامل في شهورها الأخيرة.

كلمـت ياسـمين بالهاتـف، قلـت لهـا إنّ صديقـة فـي العمـل ستسـتقبلك فـي المطار، وترافقك إلـى رام اللـه، وتعتني بك طوال الطريق.

ضحكت ياسـمين، ومازحتني، وسـألت إن كانت صبيّة أم كبيرة في السن، وغمزت ولمزت بمرح وعبث طفولي، وبعد ذلك اكتسى صوتها بالجد، ورحبت بحرارة.

عادت ياسمين برفقة نرمين، وحدث ما لم أتوقعه.

تعلّقت ياسمين بها، ونشأت بينهما مودّة، وصارت نرمين تزورنا في البيت، وتصطحبها إلى الطبيب للاطمئنان، وتذهبان إلى التسوق وشراء ما يحتاجه المولود من ملابس وغيرها.

بل إنّها صارت تستأذنني في المبيت عندها، وتجد الجو المسلي عندها، خصوصًا أنّ هياتارو أيضًا صارت صديقتها.

وامتدت هذه العناية والرعاية لياسمين عندما حان موعد الولادة، حيث أشرفت نرمين على اختيار المستشفى، والطبيبة، وشهدت لحظة خروج الطفل من رحمها، والعناية به، وبها، ومتابعة شؤونها، وإجراء معاملات الدخول والخروج، واصطحابها إلى بيتها، واحتفال الأسرة بها.

وعندما ذهبتِ لاصطحابها معي إلى بيتنا، كانت جلسة دافئة، وكان الغزل بجمال المولود يفوق الوصف.

وقبل أن نغادر، قدّمت هياتارو هديّة جميلة: كفًّا من ذهب وخرزة زرقاء شبكتها بدبوس على صدر حفيدي الجميل، وقالت: هذه الهدية اختارتها شقيقتي الكبرى نرمين، ففي عاداتكم الكف والخرزة الزرقاء تردان عين الحاسدين.

عندها ردت ياسمين قائلة: إذا كانت نرمين شقيقتك الكبرى، فإنها أمّي الثانية.

هكذا لعبت ياسمين دورها في شق طريق عندما كانت الطرق الأخرى مغلقة.

إذًا، كما ترى، أبحث عن نهاية لحكايتي الشخصيّة، وأبحث عن خيارات أخرى لبقية العمر.

أبحث عن نهايات ممكنة غير حزينة، عن مغيب غير معتم.

أبحث عن وصفة لمرحلة ما قبل الأفول.

تقلقني نهايات أولئك الرجال الذين أعطوا سنوات عمرهم للثورة، ووصلوا إلى سن التقاعد، ويشعرون بالإحباط بسبب الإقصاء والتهميش.

تخيّل أن تشعر في لحظة من اللحظات بأنك من الأفواه اللامجدية، أنه لا ضرورة لك ولا رأي ولا مشاركة، وعليك أن تضيع في متاهات المرض وأقساط البنوك وارتفاع الأسعار وانعدام الأمل، وانغلاق الأفق السياسي.

ماذا سيكون شعورك إذا ما صرت منسيًّا دون أن يشفع لك تاريخك بلمسة تقدير واحترام.

على الرغم من تمردي وعدم اعترافي بالشيخوخة ومرور الزمن، وتوجهي لكتابة المقالات والقصص، ومحاولة كتابة رواية مستوحاة من مسيرتك، فإنني ما زلت أشعر شعور عصفور فقد سربه، شعور فراغ نهايات النهار، أعني مزقًا متناثرة مما تبقى من النهار.

لتكن النهايات بلا غصّة، بلا مرارة، بلا أفول قبيح.

الفصل الخامس والثلاثون

عرس الذيب، عرس جؤذر، عرس أبو الخير وجبينة.

عـرس الأرض، عـرس الشـجر، عـرس الصخـور التـي نحتتها الرياح، عرس السدر، عرس النحل، عرس العسل، عرس السنديان، عرس البلابل، عرس المناطير، عرس النار في قلب حجارة الصوّان، عرس الحنّون والنرجس وقرن الغزال، عرس حديدان ونص نصيص والشـاطر محمّد، عرس المجوز والشـبّابة والميجنا والعتابا، عرس خبطـة الأقدام على الأرض في دبكة الأحبّة، وصوت حادي العيس يشدو بأغنية: عذّب الجمّال قلبي حينما اختار الرحيل.

عرس أبو الخير في مملكة جؤذر.

* * *

حفلة عرس أبو الخير، وكان الوقت وقت العصيرة.

القريـة أسـفل الحرش، قرية جبينـة. كبارها وشـبابها وصباياها، جـاءوا وزيّنـوا وفرشـوا؛ فعلـى امتـداد السـهل سـجاجيد وزرابـيّ

مبسـوطة، وزهور منثورة، وفواكه مصفوفة، ووجوه ناعمة، ووجوه فرحـة، وطبل وزمـر، وملابس فلاحيـة لقروييـن، وملابس عصرية أنيقة لرجال ونساء، وصبايا وشباب.

مدعـوون كُثـر دعاهم زريـف الطول أبـو الخير، وعلى رأسـهم أحمد وأحبابه: نرمين وياسـمين وهياتارو وخليـل، والدكتور نادر، والخال وزوجته، وعدد من رفاقه المتقاعدين.

ودعـا أصدقاءه من شـباب وصبايا الشـبيبة الفتحاويـة. وهؤلاء يمثلون جاهته وعزوته.

ومن ذوي العروس جبينة وعزوتها: حضر أبوها وأمها وأخواتها وأعمامها وعمّاتها وأخوالها وخالاتها، ووجهاء القرية، وكبارها.

وكان هناك من عزوتها من يعزف على الشـبّابة واليرغول، ويدقّ على الطبل.

كان فرح هائل يغمر هذه الأرض وهذا الفضاء.

فـرح يتـردد صـداه حتى الحـرش وأشـجاره وخنافسـه ونـوّاره وزهوره ووروده وسلاحفه وغزلانه.

تقـدم أحمـد رئيس الجاهة حسـب التقاليد، من والـد العروس، وألقـى كلمـة أثنى بهـا على أهـل العـروس وكرمهم ونبلهـم وعلو حسـبهم ونسبهم، وطلب يد العروس للعريس مرددًا الآية الكريمة:

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة).

وكان الدكتور نادر قد وضع أمامه على طاولة قصيرة فنجان قهوة مغطى.

فردّ عليه والدها بكلمة مماثلة، أنهاها بالموافقة والاستجابة للطلب.

وهنا تقدّم الدكتور نادر ورفع الغطاء عن الفنجان، وأشار له أن يشرب قهوته ما دامت الأمور تمت على خير حسب التقاليد. وفي الوقت نفسه، انطلقت الزغاريد، وعلا صوت الطبل والزمر.

وبعدها انشدّت الأنظار نحو الشيخ المأذون الذي أحضروه لعقد القران.

جرت مراسيم عقد الزواج، وصفق من صفق، وغنى من غنى، وزعرد من زغردت. ووزعت كاسات العصير، وحلوى البقلاوة.

وقف العريس أبو الخير، وقف مثل زريف الطول، ومثل ديك له عرف كبير، وسلّم على والد العروس وقبّل كتفيه تقديرًا واحترامًا، فيما هياتارو تواصل التصوير، ويبدو على ملامحها الفرح حتى الدهشة، ويرافقها خليل، ويفرح لفرحها.

أمّا نرمين، التي كانت تراقب عزف اليرغول والشبّابة وضرب الطبل، فقد كانت تشعر بأنها تجاوزت حدود المستحيل في مساحة المسرّة، وكان الفرح يكاد يقفز من عينيها.

وكانت ياسمين تحمل طفلها الرضيع في (الكوت) وتنطنط من السعادة.

أمّا الخال، فقد انضم للدبكة الشبابية، وكان يبدو في خبط قدميه وحركته بحيوية الشباب.

وفي زاوية ما، كانت النساء يُحطن بالعروس البهيّة، والمغندرة، التي تتدثّر بالعباءة، ويغنين ويرددن:

دير الميّه ع السرّيس

مبارك عرسك يا عريس

دير الميّه ع الليمون

مبارك عرسك يا مزيون

دير الميّه ع السرّيس

مبارك عرسك يا عروس

دير الميّه ع النخله

مبارك عُرسك يا فُلّه

وفي مكان آخر، كان الشبيبة يغنون أغنية السحجة، ويرددون:

نِزْلِتْ ع العين تملّي

مزْيونة أخذت عقلي

نزلتْ ع العين تملّي

وغمزتني تا ألاقيها

لاقيني ع دار أهلي

وغيري إوعى تلاقيها

أمّا الوجهاء والشخصيات من الطرفين، فقد جلسوا تحت ظل خيمة كبيرة مفتوحة ومفروشة بالسجاجيد والزرابي والمفارش يتبادلون الحديث ويحتسون القهوة، ومعهم جلس الشيخ المأذون.

كانوا ينتظرون اكتمال العرس بتناول الغداء. وفي مكان ما وراء المناطير، كان رجال ونساء من القرية يطبخون اللحم مع لبن الجميد، ويطبخون الرز أيضًا لإعداد طبخة (المنسف)، التي تقدم بهذه المناسبات.

كانت ياسمين في تلك اللحظة تعتني بابنها، تغيّر له الحفّاظة، وتلبسه ملابس جديدة، وتفوح منه رائحة البودرة المعطّرة، وتنتحي بعيدًا وتمدّ له ثديها وترضعه، فيما كانت نرمين وهياتارو وخليل

والخال أبو مجدي يراقبون الدبكة ويتفاعلون معها بالتصفيق أو المشاركة.

وكان أحمد يتمشى مع الدكتور نادر نحو المنحدر حيث سيّارته؛ لأنّه مضطر للعودة إلى المستشفى.

وبعد أن ودّعه وعاد، أقبلت ياسمين تحمل رضيعها وقد تورّد وجهه، وصار لخدّيه لون التفاح.

أضاءت ابتسامة فرح على وجه أحمد وامتدت يداه، وحمل الطفل وقبّله، واحتضنه، وأخذ يلاعبه، ويشمشمه.

أخرجت ياسمين من حقيبتها علبة صغيرة، علبة مكسوّة بالمخمل الأحمر، ودسّتها في جيبه، وفيما هو يلاعب الطفل الذي يبدو عليه الرضا، سألها: ما الذي دسستِه في جيب الجاكيت؟

ضحكت وبانت أسنانها التي تشبه اللؤلؤ: شيء ما. يمكن أن تحتاجه الآن، أو يمكن أن تحتاجه في وقت لاحق.

بكى الطفل، لعلّه افتقد حضن أمّه. حاول تهدئته، لكنّه واصل البكاء.

قالت وهي تتناوله من بين ذراعيْ أبيها: لم يتعوّد عليك بعد. لكنّه شمّ رائحتك. الطفل في هذه السن يتعوّد علينا من خلال حاسة الشم.

* * *

صار الطفل موضع اهتمام الجميع، وحملته ياسمين ورقصت به وسط رقص الراقصين، والراقصون كثر، لكن من يحيط بها كان نرمين وهياتارو وخليل والخال مجدي.

وكان أحمد يراقب المشهد.

كانوا يرقصون على أغنية «يا زريف الطول» ذات الإيقاع الجميل، وكان الطفل يبدو مبتهجًا بالنغم والدلال، وهو يهتزّ بين ذراعيْ ياسمين، ثمّ بين ذراعي نرمين. وأمام هذا المشهد، توقفت هياتارو عن الرقص، وبدأت تلتقط الصور.

وفي لحظة سرور، ومضت في كيان أحمد ومضة، ومضة مثل رعشة، أحسّ أنّ له عائلة، ودفء عائلة.

تذكّر العلبة التي دسّتها ياسمين في جيبه، وتذكّر ضحكة ياسمين ذات المغزى.

تحسسها في جيبه. كان ملمسها مثل ملمس الحرير.

وفي اللحظة التي فكّر فيها بإخراجها وفتحها، جاء أبو الخير، وأوقف الرقص عندما أشار لعازف اليرغول وضارب الطبل بالتوقف، ورفع صوته قائلًا: تفضلوا لتناول الطعام.

* * *

تناولوا الطعام داخل الخيمة، حيث الفانوس ساطع الضوء.

جلسوا على البساط وأكلوا بأياديهم دون ملاعق على طريقة أهل البلد.

لم يأكل أبو الخير، بل ظلّ يتنقل بين الجالسين، يتفقدهم، ويرحب بهم، ويطمئن على أنّ كل شيء على ما يرام.

أتقن أحمد تناول الطعام باليد، وكان يتقن دمج اللحم بالرز ولبن الجميد وعمل لقمة متماسكة يرفعها إلى فمه برشاقة، وكذا الخال. أما نرمين وياسمين وهياتارو وزوجة الخال، فقد كنّ يأكلن بصعوبة، وغالبًا ما تتفتت اللقمة قبل أن تصل إلى أفواههن، أكلن أكل (تخبيص)، حسبما قال الخال مجدي.

وكانت النساء الفلاحات اللواتي يأكلن غير بعيد ينظرن ويتهانفن ويضحكن.

وصار أحمد بين لقمة وأخرى، يعدّ لقمة كبيرة ويرفعها إلى فم واحدة منهن، وبما أنّ اللقمة كبيرة، فإنّ نصفها يدخل الفم ونصفها الآخر يتساقط عى الأرض. حتى خليل أيضًا كان مرتبكًا ويمد يده إلى طعام المنسف ويأكل بإصبعيه لا بيده وأصابعه الخمس.

أكلن بمرح وضحك وانبساط، دون أن يعبأن بتهانف النساء الأخريات.

ونجحت العفريتة هياتارو أثناء ذلك في إتقان إعداد لقمة متماسكة ورفعها إلى فمها دون أن تتفتت، وصارت بدورها تطعم ياسمين، فيما أحمد يطعم نرمين، وعند ذلك، خجل الخال واضطرّ أن يطعم زوجته اضطرارًا، وكم كان بودّه لو أخرج من جيبه زجاجة الكونياك، لكنّه لم يكن يقوى على فعل ذلك.

* * *

رفعت المائدة، وكانت هناك أباريق لغسل الأيدي في الخارج.

وزّعت كاسات الشاي، وانتقل أحمد إلى حيث رفاقه المتقاعدون، وانضم إليهم. كانوا يتهيّئون للمغادرة، فقد طال مكوثهم، وحان موعد نومهم.

رافقهم إلى الحافلة، وعاد إلى الساحة، حيث الدبكة التي عادت تشتعل من جديد، وضوء الفوانيس يسطع.

تسنّى له أن يمد يده ويخرج العلبة التي دسّتها ياسمين في جيبه. فتحها وفوجئ أنّ بداخلها خاتميْ خطوبة.

ابتسم، ووصلته رسالتها.

اقترب من الحلقة ووقف حيث تقف نرمين، تعلّقت به، وألصقت كتفها بكتفه، وأمسكت يدها بيده. عندها، اقترح عليها أن يتمشيا ويبتعدا عن هذا الصخب والضجيج.

طوّقها بذراعه، وتوجها إلى صخرة قريبة.

كان الليل رائقًا ومؤنسًا، وكان القمر يطلّ عليهما، وكانت عيناها تضيئان بكل الألق، وتبدو وهي تنظر إليه كأنما تسقيه من حنوّها رحيقًا.

كان قلبه يرسل إلى قلبها شعرًا وموسيقى.

وضعت رأسها على كتفه، وهمست: حبيبي.

ضمّها إلى صدره، وقبّل شعرها وجبينها.

كانت الطبيعة التي يغمرها القمر بنوره تبدو جميلة في هذا الليل أكثر من أي وقت مضى، وكان الحرش عن بُعد يبدو صامتًا، يغفو بهدوء وسكينة.

رنّ هاتفه النقّال، فأخرجه من جيبه، جاء صوت الدكتور نادر، اعتذر له عن هذا الاتصال المزعج، وقال: أردت منك أن تأخذ حذرك؛ هناك حاجز إسرائيلي وسيارات جيب على الشارع العام تحاصر مكان الاحتفال، وتفتش المشاركين.

انتهت المكالمة، وكانت نرمين تستمع.

نرمين قلقت، لكنّ أحمد لم يقلق.

ابتعدت بلطف عن صدره، وقالت: هل يزعجك ذلك؟

ضحك، وشدّ بكفّه على يدها، وقال:

كل الطرق مغلقة، ما عدا الطريق الذي نشقّه بأنفسنا.

في تلك اللحظة، انطلقت من جهة المستوطنة قنابل إضاءة، ارتفعت عاليًا وأضاءت المكان.

توقفت أصوات الطبل واليرغول. وبدا كما لو أن جو الاحتفال يتكهرب.

ظلت قنابل الإضاءة تملأ الفضاء وتضيء المكان.

لعبط الخوف في عينيها كسمكة.

ظلّ أحمد هادئًا، همس في أذنها: لا تخافي، هذه محاولات إزعاج.

عاد صوت الطبل، وتبعه اليرغول، وارتفع صوت الغناء وخبطات الأقدام في الدبكة.

عاد لها الهدوء.

كان يود أن يقول لها: كم يبدو هذا المكان واسعًا. أنت وهذه الأرض رفيقاي فيما تبقى من مشوار العمر. هنا سنزرع، وهناك سنبني منتجعًا لرفاق الدرب، وسنبني بيتًا صغيرًا تزقزق حوله العصافير.

لكنّه لم يقل.

مدّ يده وتحسس العلبة المخملية، وكان يـودّ أن يقول لها: هذه العلبة هدية من ياسمين، وهي تخصّنا.

لكنّه لم يقل.

فكّر قليلا وقال: لحظات الفرح هذه الليلة ساعة وقد عشناها.

ثم أخرج العلبة المخملية من جيبه.

ناولها العلبة، ففتحتها، وفوجئت: ياه.. ما هذا؟!

أجابها: احتفظي بها لساعة أخرى، قد نستمتع بها بومضة فرح، ولحظة الفرح قد تكون ومضة ويتعيّن علينا أن نعيشها.

كانت تلك لحظة سحر هزّت مشاعرها.

وكان يود أن يقول لها: هل تقبلينني حبيبًا وزوجًا؟

ودون أن يقول أجابت عيناها: أقبلك.

تهيأ للوقوف، وقال لها: هيّا بنا نعود ونلتحق بالعائلة.

وقفت، وظل ممسكًا بيدها الدافئة، وعادا يدًا بيد إلى حيث الطبل والزمر والضجيج والفرح، وياسمين، وخليل، والخال، وعرس الشجر، والصخور التي نحتتها الرياح، والحنّون والنرجس، وعسل السدر، والشاطر محمد، وحديدان، ونص نصيص، وجؤذر،

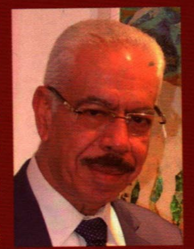
وجبينـة، وأبو الخيـر، والنهايـات الممكنـة، وخبطـات الأقدام في الدبكة التي توقظ الأرض الطيّبة من سباتها.

النهاية

انتهت يوم الأربعاء الموافق 12 نيسان/ إبريل 2017

اليد الدافئة هي مخزون دفء إنساني، يد مانحة لحب ينقّي الحياة من الشوائب، ويمثّل في هذا الصقيع الدولي فسحة أمل من أجل عالم أكثر دفئا. تتحرك شخصيات الرواية في أمكنة وأزمنة متعددة، بين حاضر وماض، بين أحلام وخيال وفنتازيا وسحر مخيلة. حكايات تتوالد، حكاية أحمد ونرمين اللذين يلتقيان على رصيف الوطن ويجمعهما واقع من فضة وخيال من ذهب، وحكاية سمعان وصوفي اللذين يجمعهما نداء الغريب إلى الغريبة، في متاهات اللجوء. وحكايات أخرى لشخصيات تنبت مثل الزهور من بين الصخور، وتشرئب أعناقها نحو فضاءات الحرية متحدية الحصار والغربة والأسلاك الشائكة.

أحداث هذه الرواية تتوالد من صراع البقاء، مكللة بذهب الحب وهو إحدى ركائز الحياة الإنسانية، مانحة الحياة روحا تتجدد لتواجه مكر التاريخ.



يحيى يخلف، كاتب فلسطيني معروف. صدر له العديد من المجموعات القصصية والروايات منها: "نورما ورجل الثلج" و"تلك المرأة الوردة" و"نجران تحت الصفر" و"نشيد الحياة" و"بحيرة وراء الريح" و"ماء السماء" و"جنّة ونار" و"تلك الليلة الطويلة" و"نهر يستحم في البحيرة" و"راكب الريح". ترجمت بعض أعماله إلى عدة لغات. شغل عدة مناصب في منظمة التحرير الفلسطينية، ترأس وفد فلسطين للعديد من المؤتمرات الثقافية العربية، ومؤتمرات (اليونسكو). يترأس الآن تحرير مجلة (أوراق فلسطينية) الفكرية الثقافية التي تصدر من فلسطين.

لوحة الغلاف للفنانة سماء يحيى



للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com



9 789777 951388

الدار المصرية اللبنانية